

# سُورَةُ الْأَنْعَامِ

مكية وهي مائة وخمس وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تعليقُ الحمد باسم الذات، للإيذان بأنه عزَّ وجل هو المستحقُّ له بذاته، ووصفه بقوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ للتنبية على استحقاقه تعالى له باعتبار أفعاله العظام، وتخصيصُ خلقهما بالذكر، لاشتمالهما على جملة الآثار العلوية والسفلية، التي أجلها نعمة الوجود، الكافية في إيجاب حمده تعالى على كل موجود، أخبر تعالى بأنه حقيقٌ بالحمد، ونبَّه على أنه المستحق للحمد، على هذه النعم الجسام، حَمِدَ أو لم يُحمد، ليكون حجةً على الذين هم بربهم يعدلون، وجمَعَ السَّمَاءَ وقَدَّمها لشرفها، وأشرفيةُ السماء لأنها محلُّ الملائكة، وقبلةُ الدعاء، ومعراجُ الأرواح الطاهرة، ومعظم آيات الله فيها، وغير ذلك، والمراد من

الخلق: الإنشاء والإيجاد، أي أوجد السماوات والأرض، على ما هما عليه، ممّا فيه آياتٌ للمتفكرين ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ جَمَعَ الظلمات لكثرة أسبابها، ولم يذكر النور في القرآن إلا مفرداً، والظلمات إلا جمعاً، لأن النور شيءٌ واحد، وإن تعدّدت مصادره، وأما الظلمات فهي تحدث بما يحجب النور من الأجسام، وهي كثيرة، والمراد من الظلمات: ظلمة الشرك، والنفاق، ومن النور: نورُ الإسلام، وقيل: المراد حقيقة النور والظلام، فهما مظهر من مظاهر القدرة الباهرة، عبّر تعالى عن إحداث النور والظلمات بالجعل، تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما، بل لا بدّ لهما من خالق مبدع، وهو الله رب العالمين ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ العدلُ بمعنى العدول أي الانصراف، والمعنى: أنه سبحانه خلق هذه الأجرام العظام، التي دخل فيها كل ما سواه ثم هؤلاء الكفرة، الجاحدون للنعم، يسوّون به تعالى غيره، ممن لا يقدر عليها، وهم في قبضة تصرفه، وثُمَّ، لاستبعاد ما وقع من الكفرة وللتوبيخ، أي وبعد كل هذه الدلائل، يشرك الكفار فيسوّون بين الأوثان والرحمن.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أي ابتداء خلقكم منه، فإنه المادة الأولى للكل، وآدم هو أصل البشر خُلِقَ منه، وتخصيص خلقهم بالذكر، من بين دلائل البعث، لما أن محل النزاع بعثهم، وكلُّ البشر له حظ من إنشائه منه، حيث لم تكن فطرة آدم مقصورة على نفسه، بل كان أنموذجاً منطوياً على فطرة آحاد الجنس، وقيل معنى خلقكم منه، من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض، وأياً ما كان ففيه من وضوح الدلالة، على كمال قدرته تعالى على البعث، فإن من قَدَرَ على إحياء ما لم يشم رائحة الحياة قط، كان إحياء ما قارنها أظهر قدرة ﴿ثُمَّ قَضَى﴾ أي كتب لموت كل واحد منكم ﴿أَجَلاً﴾ خاصاً به من الزمان، يفنى عند حلوله لا محالة، وكلمة «ثم» للإيدان بتفاوت ما بين خلقهم، وبين تقدير آجالهم ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو أجل القيامة، وقيل: الأول ما بين الخلق والموت، والثاني ما بين الموت والبعث، وهو الأوفق لما روي عن ابن عباس قال: إن الله

قضى لكل أحد أجلين: أجلاً من مولده إلى موته، وأجلاً من موته إلى مبعثه، فإن كان برأً ووصولاً إلى الرحم زيد له من أجل البعث إلى أجل العمر وإن كان فاجراً قاطعاً نقص من أجل العمر، وزيد في أجل البعث، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾<sup>(١)</sup> ﴿عِنْدَهُ﴾ أي وأجلٌ مثبتٌ ومبينٌ في علمه تعالى، لا يتغير، وتسميته أجلاً باعتبار كونه مبدأً لمدة القيامة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ﴾ استبعاد لامترائهم، بعدما ثبت أنه خالقهم، وخالق أصولهم، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها، وإبداع الحياة فيها، وإبقائها ما شاء، كان أقدر على جمعها ثانياً، والامتراء في الشيء: الشكُّ فيه، ولا شك في أن لكل فرد أجلاً في علم الله تعالى، فلا يتغير، ولا يقتضي هذا نفي الأسباب، فإن صلة الرحم من أهم أسباب هناء المعيشة، وهناء المعيشة من أهم أسباب طول العمر، وكذلك الدعاء الذي منشؤه قوة الإيمان، التي تقاوم الهموم والأكدار، اللذان يهرمان قبل أوان الهرم.

﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ مسوقة لبيان شمول أحكام إلهية لجميع المخلوقات، وإحاطة علمه بأعمال العباد ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي هو المستحق للعبادة فيهما لا غيره، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾<sup>(٢)</sup> كأنه قيل: وهو المعبود فيهما ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي ما أسررتهم، وما جهرتهم به، من الأقوال، والأفعال. والمراد من السر ما يخفيه الإنسان في ضميره، وبالجهر ما يظهره، وفائدة ذكر الجهر للمقابلة، والتأكيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير وشر، فيثب عليه ويعاقب وقيل: أريد بالسر والجهر: ما يخفى وما يظهر من أحوال النفس، وبالمكتسب أعمال الجوارح وتخصيصها بالذكر لإظهار كمال الاعتناء بها، لأنها التي يتعلق بها الجزاء.

(١) سورة فاطر، آية: ١١.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٨٤.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ما يظهر لهم دليل من الأدلة، أو معجزة من المعجزات، أو آية من آيات القرآن، التي من جملتها تلك الآيات الناطقة ببداية صنع الله تعالى ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه، وإيثار الجملة على أن يقال: «إلا أعرضوا عنها» للدلالة على استمرارهم على الإعراض، حسب استمرار الإتيان، كما يفصح عنه كلمة «لَمَّا» في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعني كذبوا بالقرآن المنير الواضح، وهو كاللازم لما قبله وكالدليل عليه، على أنهم لما أعرضوا عن القرآن، وكذبوا به، وهو أعظم الآيات، فكيف لا يعرضون عن غيره؟ والمراد من الحق القرآن الذي أعرضوا عنه، عبّر عنه بذلك، إبانةً لكمال قبح ما فعلوه، فإنّ تكذيب الحق مما لا يتصور صدوره عن عاقل ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم و«سوف» لتأكيد مضمون الجملة وتقريره، أي فسيأتي البتة وإن تأخر، و«ما» عبارة عن الحق المذكور، عبّر عنه بذلك تهويلاً لأمره بإبهامه، والأنباء جمع نبأ، وهو الخبر الذي يعظم وقعه، وأنباؤه تعالى عبارة عما سيحلّ بهم من العقوبات العاجلة، من القتل، والسبي، والجلاء، ونحو ذلك. رتب الله تعالى أحوال الكفار على ثلاث مراتب: الأولى: كونهم معرضين، والثانية: مكذبين، والثالثة: مستهزئين فبين الله

تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب، وسينالون جزاء هذا التكذيب.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ مسوق لتعيين ما هو المراد بالأنباء، التي سبق بها الوعيد، والقرن: عبارة عن أهل عصر من الأعصار<sup>(١)</sup>، والمعنى: ألم يعرف هؤلاء المكذبون المستهزئون، بمعينة الآثار، وتواتر الأخبار، كم أمة أهلكتنا من قبل خلقهم؟ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأضرابهم؟ ﴿ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً، وأعطيناهم ما تمكنوا به من أنواع التصرف فيها ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾ ما لم نجعل لكم من القوة والسعة في المال، والاستظهار بالعدد والأسباب والخطاب لكفرة قريش ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ ﴾ المطر ﴿ مِدْرَارًا ﴾ مغزراً كثيراً الصب، وهو صيغة مبالغة من قولهم: درّ اللبن، ويقال: سحاب مدرار إذا تتابعت أمطاره ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ أي من تحت مساكنهم، وفيه من الدلالة على كونها مسخرة لهم، مستمرة على الجريان، والمراد أنهم عاشوا في الخصب والريف، بين الأنهار والثمار، وأعطيناهم ما لم نعط أهل مكة، ففعلوا ما فعلوا ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فما أغنت عنهم تلك العُدَد والأسباب ﴿ وَأَنْشَأْنَا ﴾ أوجدنا ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ بعد إهلاك كل قرن ﴿ قَرْنًا ﴾ آخِرِينَ ﴿ بدلاً من الهالكين، والمعنى: أنه تعالى كما قدر أن يهلك من قبلكم وينشئ مكانهم آخرين، يقدر أن يهلككم يا أهل مكة، وهذا بيان لكمال قدرته تعالى، وفي الآية ما يوجب الاعتبار، فإنهم مع ما كانوا عليه من العُدَد والعُدَد أهلكوا لكفرهم، فكيف بمن هم أضعف منهم؟

(١) القرون جمع قرن، وهو أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران، كأنَّ أهل ذلك الزمان اقترنوا في أعمالهم وأحوالهم، وقيل: القرن مائة سنة.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْنَهَزَيْ بَرُّسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُل سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ ﴾ نزلت في النضر بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل، لما قالوا لرسول الله ﷺ: لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة، يشهدون أنه من عند الله وأنك رسول الله، والقرطاس: الورق الذي يكتب فيه ﴿ فَلَمَسُوهُ ﴾ أي الكتاب ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ بعدما رأوه بأعينهم، بحيث لم يبق لهم في شأنه اشتباه، والرؤية واللمس أقوى اليقينيات الحسية، ولا سيما إذا اجتمعا ﴿ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ جواب «لو» أي لقالوا تعنتاً وعناداً للحق، وإنما وضع الموصول موضع الضمير، لتسجيل الكفر عليهم ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أي ما هذا، مشيرين إلى ذلك الكتاب ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي بين كونه سحراً.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ هلاً أنزل عليه ملك، يكلمنا أنه نبي كقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (١) ﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي ولو أنزلنا عليهم ملكاً على صورته الحقيقية، فشاهدوه بأعينهم، لتمَّ أمر إهلاكهم بسبب مشاهدتهم له، لمزيد هول المنظر، وقد قيل: إن جميع الأنبياء وهم هم إنما رأوا الملك في صورة البشر، ولم يره أحد منهم على صورته غير النبي ﷺ كما صحَّ من رواية الترمذي عن

(١) سورة الفرقان، آية: ٧.

عائشة: «أن النبي ﷺ رأى جبريل مرتين، على صورته الأصلية»<sup>(١)</sup> ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون بعد إنزاله ومشاهدتهم له طرفة عين.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ الضمير الأول للذير، والضمير الثاني للملك، والمعنى: لو جعلنا الذير الذي اقترحوه ملكاً، لمثلنا ذلك الملك رجلاً لعدم استطاعة البشر لمعاينة الملك على هيكله وفي إيثار رجلاً على «بشراً» إيذاناً بأن الجعل بطريق التمثيل، لا بطريق قلب الحقيقة، وفيه إشعار بأن الرسول لا يكون امرأة، وهو متفق عليه ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمُ﴾ اللبس: الخلط، لبس عليه الأمر خلطه ﴿مَا يَلْبَسُونَ﴾ بأن يقولوا له: إنما أنت بشر، ولست بملك، فيلبس الأمر عليهم ويختلط، وفيه تأكيد لاستحالة جعل الذير ملكاً!!

﴿وَأَقَدَّ اسْتَهْزَيْتَ رَسُولِي مِنْ قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ على ما يرى من قومه، أي وبالله لقد استهزىء برسلي أولي شأن خطير، ذوي عدد كثير، كائنين من قبلك، ولست أول رسول استهزأ به قومه ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذا متضمن أن من استهزأ بالرسول عوقب، فكانه سبحانه وعده بعقوبة من استهزأ به، و«حَاقَ» بمعنى أحاط، ولا يكاد يُستعمل إلا في الشر، أي فأصابهم الذي كانوا يستهزئون به، حيث أهلكوا لأجله، أو نزل بهم وبال استهزائهم، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بعد بيان ما فعلت الأمم الخالية، وما فعل بهم، أمر الله رسوله بإنذار قومه، تحذيراً لهم عما هم عليه، وتكملةً للتسلية، بما ضمنه من العدة اللطيفة، بأنه سيحقيق بهم، مثل ما حاق

(١) رواه الترمذي في التفسير ٣٦٨/٥ من حيث عائشة، ولفظه «ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين: مرةً عند سدرة المنتهى، ومرةً في جباد، له ستمائة جناح، قد سدَّ الأفق».

(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.

بأضرابهم الأولين، أي سبروا في الأرض لتعرّف أحوال أولئك الأمم ﴿ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ ﴾ أي تفكروا في أنهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال، والعاقبة: هي منتهى الأمر ومآله، ووضع المكذبين موضع المستهزئين، لتحقيق أن مدار إصابة ما أصابهم، هو التكذيب لا الاستهزاء فقط، ولما بين الله تعالى في الآيات السابقة، أصول الدين، وشبهات الكفار على الرسالة، وما يدحضها، فقى سبحانه على ذلك، بتلقيه أسلوباً آخر، وهو أسلوب السؤال والجواب.

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ۗ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۖ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَمْرًا أَوْ لِيَأْخُذَ فَاظْطَرَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنَّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنَّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۗ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ۖ ۝

فقال: ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾؟ أي قل يا رسول الله على سبيل التقرير: ﴿ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾؟ أي لمن الكائنات جميعاً، خلقاً، ومُلكاً وتصرفاً؟ فإن أجابوك وإلاً ﴿ قُلْ لِلَّهِ ﴾ تقرير الجواب نيابة عنهم، بأن الكل له سبحانه، وفيه إشارة إلى أن الجواب، قد بلغ من الظهور، إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا على دفعه دافع، كما نطق به تعالى في قوله: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿ كُنِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ﴾ جملة مستقلة داخلية تحت الأمر، ناطقة بشمول رحمته الواسعة للجميع، لبيان أنه تعالى رؤوف

(١) سورة لقمان، آية: ٢٥.

بعباده، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ومعنى كتب الرحمة إيجابها بطريق التفضل والإحسان، ومن رحمته أنه تعالى خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته وتوحيده، بنصب الآيات، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، لاجتناب مقتضيات سخطه ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله ليجمعنكم مبعوثين إلى يوم القيامة، وهذا من مقتضيات تلك الرحمة، لأن الجمع لأجل الحساب والجزاء رحمة بالمكلفين، والعلم به رحمة أيضاً، لأنه لولا خوف الحساب والعذاب، لحصل الهرج والمرج، ولحصل الظلم، فصار الإيمان بيوم القيامة، من أعظم أسباب الرحمة، والخطاب للكافرين، وقيل عام، أي ليجمعنكم أيها الناس إلى يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه، لوضوح أدلته ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرة، والعقل السليم، واستماع الوحي ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عدم إيمانهم بسبب خسرانهم، فإن إبطال العقل، والانهماك في التقليد، أدى بهم إلى الإصرار على الكفر، والجملة لتقبيح حالهم، غير داخلة تحت الأمر.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ احتجاج ثانٍ على المشركين، أي له جلٌ وعلا ما ثبت واستقر في الليل والنهار، الجميعُ عباده وخلقهِ، وتحت قهره وتصرفه، فهو الخالق، وهو المالك لجميع الكائنات والأشياء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ مبالغ في كل مسموع ﴿الْعَلِيمُ﴾ مبالغ في العلم بكل معلوم، فلا يخفى عليه شيء من الأفعال والأقوال.

﴿قُلْ﴾ للمشركين ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُ وَايَا﴾ الاستفهام للتوبيخ، أي قل لهؤلاء المشركين: أغير الله أتخذ معبوداً؟ قيل: إن المشركين من أهل مكة، قالوا له ﷺ: يا محمد، تركت ملة قومك وقد علمنا أنه لم يحملك على ذلك إلا الفقر، فارجع فإننا نجمع لك من أموالنا، حتى تكون من أغنيائنا، فنزلت الآية ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما على غير مثالٍ سابق، أي هو المخترع والموجد لهما ﴿وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يرزق ولا يُرزق،

فالمراد من الطعام: الرزق بمعناه اللغوي، وهو كل ما يُنتفع به ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلَهُ﴾ لأن النبي ﷺ سابق أمته في الدين، وينبغي لكل امرء، أن يكون هو العامل أولاً بما أمر به، ليكون أدعى للامتنال ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي: ولا تكوننَّ في أمر من أمور الدين من المشركين.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بمخالفة أمره ونهيه أي عصيان كان، وفيه بيان لكمال اجتنابه ﷺ عن المعاصي على الإطلاق ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عذاب يوم القيامة، وفيه تعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب، وعظم اليوم لعظم ما يقع فيه، وليس في الآية دلالة على أنه ﷺ يخاف على نفسه الكفر والمعصية، لأن الشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ﴾ أي العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدَرْنَا رَحْمَةً﴾ أي الرحمة العظمى وهي النجاة، وقيل: المرادُ فقد أدخله الجنة، فذكر الملزوم وأريد اللازم، لأن إدخال الجنة من لوازم الرحمة ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ الفوز المبين: هو بدخول الجنة لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ والفوز: الظفرُ بالْبُعْيَةِ، ونيلُ المطلوب.

﴿وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧) ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١٨) ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَيْنُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١٩) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢١).

(١) سورة الزخرف، آية: ٨١.

﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ أي ببلية كمرض، وفقر، ونحو ذلك، والخطابُ للرسول ﷺ وحكمه عام ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا قادر على كشفه سواه سبحانه ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ ﴾ من صحة وغنى وغير ذلك ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيمسكه ويحفظه عليك، من غير أن يقدر على دفعه أو رفعه أحد، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾<sup>(١)</sup> ومن دقائق بلاغة القرآن المقابلة بين الضر والخير، والنكتة فيه أن الضر من الله تعالى ليس شراً في الحقيقة بل هو تربية واختبار، ثم ذكر الخير في مقابلة الضر، فأفاد أن ما ينفع الناس من النعم، إنما يحسن إذا كان خيراً لهم، وقدم الضر إيذاناً على أن المصرة يعقبها الخير والسلامة<sup>(٢)</sup>، روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا غلامُ إني أعلمك كلمات: احفظ الله تعالى يحفظك، احفظ الله تعالى تجده أمامك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقاليم، وجفت الصُّحُفُ»<sup>(٣)</sup>.

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ تصويرٌ لقهره تعالى، وعلوه بالغبلة والقدرة، والقاهر والقهار الذي يدبر ما يريد، فلا يستطيع أحد ردَّ تدبيره، وظاهر الآية يقتضي القول بالجهة، والله تعالى منزه عنها، لأنها محدثة بإحداث العالم، ومذهب السلف إثبات الفوقية لله تعالى، كما نص عليه الإمام الطحاوي، واستدلوا بما روى أبو داود من قوله ﷺ للرجل الذي

(١) سورة يونس، آية: ١٠٧.

(٢) إنما قدم الضر على النفع، لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً، ثم طمعاً في ثوابه ثانياً، كما قال سبحانه: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٦٠ وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند رقم ٢٦٦٩.

استشفع بالله تعالى عليه: «ويحك، أتدري ما الله تعالى؟ إن الله تعالى فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته» وبالجملة يجب تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات، وتفويض علم ما جاء من المتشابهات إليه عز وجل، والإيمان بها، والله تعالى أعلم ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي ذو الحكمة البالغة، وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه ﴿الْحَيُّ﴾ أي العالم بما دق من أفعال العباد.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾؟ روى الكلبي أن كفار مكة قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر، فأتنا بمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزلت ومعنى ﴿أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أعظم وأصدق أي قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين: أي شيء أكبر شهادة؟ فإن أجابوك، وإلا ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي الله أكبر شهادة، شهيد بيني وبينكم أي رسوله ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من قبله تعالى ﴿هَذَا الْقُرْآنُ﴾ العظيم الشاهد برسالتي ﴿لِيُنذِرَكُمْ بِهِ﴾ بما فيه من الوعيد والاقْتِصَارِ عَلَى الْإِنذَارِ، لما أن الكلام مع الكفار ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي لأنذركم به يا أهل مكة، وسائر من بلغه من الثقلين، إلى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن الكريم تعم الموجودين، وقت نزوله ومن بعدهم، روي عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته»<sup>(١)</sup> ﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد لدعواهم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَا أَشْهَدُ﴾ بذلك وإن شهدتم به، فإنه باطل صرف ﴿قُلْ﴾ تكرر الأمر للتأكيد ﴿إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ أي بل أشهد أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام، قال العلماء: المستحب لمن أسلم ابتداءً، أن يأتي بالشهادتين، ويتبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال «من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه» وانظر تفسير ابن كثير ٢/١٣٠.

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ هذا جواب عما سبق من قولهم: سألنا اليهود والنصارى ﴿ يَعْرِفُونَهُمْ ﴾ أي يعرفون رسول الله، بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ ﴾ بصفاتهم ونعوتهم، بحيث لا يشكُّون في ذلك أصلاً ﴿ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ من أهل الكتاب والمشرِّكين، بأن ضيَّعوا الفطرة السليمة، وأعرضوا عن البيِّنات الموجبة للإيمان بالكلية ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: فكيف هذه المعرفة؟ قال: لأننا بمحمد أشدُّ معرفةً مني بابني، لأنني لا أدري ما أحدثت أمُّه، فقال عمر: قد وقَّفت وصدقت<sup>(١)</sup>.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بادعائه أن له سبحانه شريكاً، وبقوله الملائكة بنات الله، وأمثال ذلك، الاستفهام إنكار لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساوياً له ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ المنزلة كالقرآن المجيد والمعجزات التي سموها سحراً، وكلمة «أو» للإيدان بأن كلاً من الافتراء، والتكذيب وحده، بالغ غاية الإفراط في الظلم، كيف وقد جمعوا بينهما؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي الشأن الخطير هذا، وهو ﴿ لَا يُفْلِحُ ﴾ أي لا يفوز بمطلوب، ولا ينجو من مكروه ﴿ الظَّالِمُونَ ﴾ من حيث إنهم ظالمون، وإذا كان حال الظالمين هذا، فما ظنك فيمن هو في غاية الظلم والفجور؟.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا ءَأْيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي ويوم نحشر الكفار وآلهم جميعاً، على اختلاف درجاتهم في ظلم أنفسهم ﴿ ثُمَّ نَقُولُ ﴾ للتوبيخ والتقريع على رؤوس الأشهاد ﴿ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ بالله تعالى ﴿ أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله سبحانه؟ وإضافتها إليهم، لما أنّ شركتها ليست إلا بتسميتهم، وتقولهم الكذب، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي تزعمونها شركاء، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علّقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لما لم ينفعوهم فكانهم غيب عنهم.

﴿ ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ الفتنة: اختلف في المراد منها هنا: فقيل: الشرك واختاره الزجاج<sup>(١)</sup>، وهو مروى عن ابن عباس وقيل: معذرتهم، وقيل: جوابهم، وإنما سماه فتنة، لأنه كذب قصدوا به الخلاص ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾ أي لم يكن كفرهم الذي لزمه مدة أعمارهم، إلا جحوده والتبرؤ منه، بأن يقولوا ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ يكذبون ويحلفون عليه، مع علمهم بأنه لا ينفع، من فرط الحيرة والدهشة، كما يقولون ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ وقد أيقنوا بالخلود.

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ ﴾ تعجيب من كذبهم، بإنكار صدور الشرك عنهم في الدنيا، أي انظر كيف كذبوا على أنفسهم؟ فإنه أمر عجيب ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ المراد بها الأصنام التي كانوا يعبدونها، أي زالت وذهبت عنهم أو ثابتهم، فلم تغن عنهم من الله شيئاً.

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ أي فريق منهم يستمعون إليك، ومفعوله مقدر وهو القرآن، قال ابن عباس: إن أبا سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر:

(١) قال الزجاج: مثال الآية أن ترى إنساناً يحثُ غاويّاً، فإذا وقع في مهلكة، تبرأ منه، فيقال له: ما كان حبك لفلان إلا أن تبرأت منه؟!.

ما يقول محمد؟ قال: ما يقول إلا أساطير الأولين، مثل ما كنتُ أحدثكم به، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جمع كِنَان، وهو ما يُستَر به الشيء، والكِنان: الغطاءُ وزناً ومعنى أي يستمعون إليك، وقد ألقينا على قلوبهم أعظيةً ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوا ما يستمعونه من القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً وثقلاً مانعاً من سماعه، وهذا تمثيلٌ معرّبٌ عن كمال جهلهم بشؤون النبي ﷺ، وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُذُوبًا﴾ أي يشاهدوا ويبصروا كل معجزة، دالة على صدق الرسول ﷺ، كانشقاق القمر، ونبع الماء بين أصابعه الشريفة، وتكثير القليل من الطعام، ونحو ذلك ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لفرط عنادهم، والمراد ذمهم بعدم الانتفاع بحاسة البصر، بعد أن ذكر سبحانه عدم انتفاعهم، بقولهم وأسماعهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ يعني إنهم إذا جاؤوك إنما جاؤوا ليخاصموك ويجادلوك، و«حتى» هي التي يقال لها: حتىّ الابتدائية ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إنما وضع الموصول ذماً لهم، وإشعاراً بعله الحكم، أي بلغوا من التكذيب إلى أنهم إذا جاؤوك مجادلين لك لا يكتفون بعدم الإيمان، بل يقولون ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ الأساطير<sup>(١)</sup> جمع أسطورة، ومعناها الخرافة، وعدُّ أحسن الحديث وأصدق، من قبيل الخرافات، رتبة من الكفر، لا غاية وراءها.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الضمير عنه للقرآن، أي وهم لا يقنعون بما ذكر، بل ينهون الناس عن استماعه، لثلا يقفوا على حقيقته، فيؤمنوا به ﴿وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ أي يتباعدون عنه بأنفسهم، إظهاراً لغاية نفورهم عنه، ويحتمل أن يكون الضمير للرسول، على معنى ينهون الناس عن الإيمان به ﷺ، ويتباعدون عنه، وهذا مروى عن ابن عباس رواه ابن جرير وغيره،

(١) قال في القاموس: الأساطيرُ: الأحاديث التي لا نظام لها، وأرادوا ما هذا إلا كقصص وأخبار الأولين التي سَطَّروها، وليس كلام الله تعالى!!.

ولا يخفى ما في «ينهون» و «ينأون» من التجنيس البديع<sup>(١)</sup> ﴿وَأَن يَهْلِكُونَ﴾ أي وما يهلكون بذلك ﴿إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ بتعريضها لأشد العذاب، وهو عذاب الضلال والإضلال ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي والحال أنهم غير شاعرين بهلاك أنفسهم، على أن مقصدهم ليس منع الناس عن استماع القرآن، بل إغراقهم في الطغيان، فقد كانوا يبيغون الغوائل لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، ونفي الشعور أبلغ من نفي العلم، كأنه قيل وما يدركون ذلك أصلاً.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ الخطاب إمّا لرسول الله ﷺ أو لكل أحد، وجواب «لو» محذوفٌ إيذاناً بقصور العبارة عن تفصيله أي لو تراهم حين يوقفون على النار لرأيت ما لا يسعه التعبير، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿فَقَالُوا﴾ لعظم أمر ما تحققوه ﴿يَلَيْتُنَا نُرَدُّ﴾ أي إلى الدنيا، تمنياً للرجوع والخلص ولكن هيهات ﴿وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ أي بآيات الله الناطقة بصدق الرسل، والمخبرة عن أحوال النار وأهوالها ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بها حتى لا نرى هذا الموقف الهائل.

(١) الجنس فنون علم البديع، يزيد الكلام رونقاً وجمالاً، فقد اتفقت الحروف بين «ينهون» و «ينأون» إلا في حرف واحد، ويسمى هذا بالجناس الناقص، وهناك الجنس التام كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ يراد بالساعة الأولى القيامة، وبالثانية المدة من الزمن، فقد اتفقا في اللفظ، واختلفا في المعنى.

﴿ بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يُمْحِفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ﴿ إضرابٌ عما ينبىء عنه التمني، أي ليس ذلك ناشئاً عن رغبة في الإيمان، بل ظهر لهم في موقفهم ما كانوا يخفونه في الدنيا، والمراد بها النار التي وقفوا عليها ﴾ ﴿ وَتَوَرَّدُوا ﴾ من موقفهم ذلك إلى الدنيا حسبما تمنوه ﴾ ﴿ لَعَادُوا لِمَا هُوتُوا عَنْهُ ﴾ من فنون القبائح، ونسوا ما عاينوه من أنواع العذاب، لخبث طبيعتهم، وسوء استعدادهم، ولهذا لا ينفعهم مشاهدة ما شاهدوه ﴾ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴾ لأن ديدنهم الكذب، في كل ما يأتون وما يذرون.

﴿ وَقَالُوا إِنَّا هِيَ ﴾ أي ما الحياة ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ أي ليس هناك بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا عودة إلى الحياة بعد الموت.

﴿ وَتَوَرَّجَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ الوقوف هنا مجازٌ عن الحبس، للتوبيخ والتأنيب، أي لو رأيت حالهم لأشفقت عليهم ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا ﴾ مشيراً إلى ما شاهدوه من البعث وما يتبعه ﴿ يَا حَقَّ ﴾ أي حقاً لا باطلاً كما زعمتم، والهمزة للتقريع على التكذيب ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أكدوا إقرارهم باليمين، إظهاراً لكمال يقينهم بحقيقته، ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ الذي عاينتموه ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ في الدنيا، ولعل هذا التوبيخ إنما يقع بعدما وقفوا على النار، إذ الظاهر أنه لا يبقى بعد هذا الأمر إلا العذاب.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ أي البعث وما يتبعه من الحساب والجزاء ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ ﴾ غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم، فإنه أبدي لا

حدّ له، والساعة: القيامة، أطلق على القيامة، إمّا لوقوعها بغتة، أو لأنها تقوم في آخر ساعة الدنيا ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿قَالُوا﴾ جواب إذا ﴿يَحْسَرُنَا﴾ تعالي فهذا أوانك، والحسرة أشدُّ الندم، والتلهف على الشيء الفاتت، والحسرة لا تُطلب ولا يتأتى إقبالها، وإنما المعنى على المبالغة في ذلك، كأنهم ذهبوا فنادَوْها، ومثل ذلك نداء الويل ونحوه، ولا يخفى حسنه ﴿عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ أي على تفریطنا وتقصيرنا في اكتساب الأعمال الصالحة، في الحياة الدنيا، والتفريط: التقصير في الشيء مع القدرة على فعله، فرَط في الأمر تفریطاً قَصَرَ فيه وضيَّعه ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ الوزرُ في الأصل: الحملُ الثقيلُ، سُمِّيَ به الإثمُ لثقله على صاحبه، وذكرُ الظهور لأن المعتادَ حملُ الأثقال على الظهر، والغرضُ أنهم يتحسرون على ما لم يعملوا من الحسنات، والحال أنهم يحملون أوزار ما عملوا من السيئات ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَرِزُونَ﴾ أي بئس شيئاً صنعوه وارتكبوه، أوزدَهم نار الجحيم.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لَمَّا حَقَّقَ أَنْ وِراءَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةٌ أُخْرَى، يَلْقُونَ فِيهَا مَا يَلْقُونَ، بَيَّنَّ هُنَا حَالِ تِلْكَ الْحَيَاتَيْنِ فِي أَنْفُسِهِمَا فَقَالَ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وَاللَّهُوُ: صَرَفُ النَّفْسِ عَنِ الْجَدِّ إِلَى الْهَزْلِ، لَهَا بِالشَّيْءِ يَلْهُو لَعِبٌ بِهِ، وَالْمَعْنَى: وَمَا أَعْمَالُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُو، تَشْغَلُ النَّاسَ بِمَا فِيهَا مِنْ مَنَفْعَةٍ سَرِيعَةِ الزَّوَالِ، عَمَا فِيهِ مَنَفْعَةٌ جَلِيلَةٌ بَاقِيَةٌ، مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْكَلَامُ مِنْ «التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ» جَعَلَتْ الدُّنْيَا نَفْسَهَا لَعِبًا وَلَهُوًّا مَبَالِغَةً، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ: «وَأِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ» أَي لَيْسَتْ الدُّنْيَا إِلَّا كَلْعَبِ الْأَطْفَالِ، يَتَلَهَّى بِهَا الصِّبْيَانُ، وَعَمَا قَرِيبٌ تَزُولُ ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ﴾ أَي الْآخِرَةِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَهَا ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أَي يَخْشَوْنَ اللَّهَ وَيَخَافُونَ عِقَابَهُ، لِأَنَّ مَنَافِعَ الْآخِرَةِ خَالِصَةٌ عَنِ الْمَضَارِ، وَلِذَلِكَ غَيْرُ مَنَفْعَةٍ بِالْأَلَامِ، مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى الدَّوَامِ، خَصَّ الْمُتَّقِينَ لِأَنَّهَا الْأَصْلُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ ذَلِكَ حَتَّى تَتَّقُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ؟

والفاء للعطف على محذوف أي ألا تتفكرون فلا تعقلون؟ والاستفهام للتنبيه والحث على التأمل.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ  
بَيَّاتٍ اللَّهُ يَمْجِدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا  
وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ  
الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْغِي نَفَقًا  
فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى  
الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْقِفُ  
يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ الآية مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ، عن  
الحزن الذي كان يعتريه، من إصرار المشركين على التكذيب ببيان أنه ﷺ  
بمكانة من الله تعالى، وكلمة «قد» لتأكيد العلم، وقد كانوا يقولون: إنه  
شاعر، وكاهن، ومجنون<sup>(١)</sup>. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أبا  
جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله  
هذه الآية<sup>(٢)</sup> ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ على الحقيقة لعلمهم بصدقك، وفيها  
بيان لبلوغه ﷺ في جلاله القدر، غاية ليس وراءها غاية، حيث نفى

(١) وقيل معنى الآية: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون بألسنتهم، روي  
ذلك عن قتادة وغيره، ويؤيده ما رواه السدي أنه التقى الأخنس بن شريق، وأبو جهل  
فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد ﷺ أصادق هو أم كاذب؟  
فإنه ليس ههنا أحد يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما  
كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قُصيَّ باللواء، والسقاية، والحجابه، والنبوة، فماذا  
يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٢٤٤/٥ باب تفسير سورة الأنعام.

تكذيبهم له ﷺ وأثبتته لآياته، على طريقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (١) إيذاناً بكمال القرب، واضمحلال شؤونه ﷺ في شأن الله عز وجل، وفيه أيضاً استعظام جنائتهم، كأنه قيل لا تعتدّ به وكله إلى الله تعالى، فإنهم في تكذيبهم ذلك لا يكذبونك في الحقيقة ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ أي ولكنهم يجحدون آيات الله ويكذبونها، لتمرنهم على الظلم، وإيراد الجحود في موضع التكذيب، للإيذان بأن آيات الله تعالى من الوضوح، بحيث يشاهد صدقها كل أحد، وأن من ينكرها إنما ينكرها بطريق الجحود، الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (٢).

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تفنن في تسليته ﷺ فإن عموم البليّة، يهون أمرها بعض تهوين، وإرشاد له ﷺ إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام، أي وباللّه لقد كُذِّبَتْ من قبل تكذّيبك رسلٌ أولو شأنٍ خطير، وذوو عدد كثير، ﴿فَصَبْرًا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا﴾ فتأسّ بهم، واصطبر على ما نالك من قومك، فانت أولى بالصبر لأنك مبعوث إلى العالمين، فاصبر كما صبروا، وفيه تأكيد للتسلية ﴿حَقَّ أَنَّهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيه إيذان بأن نصره تعالى لهم أمر مقرّر للصابرين ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ المراد بكلماته تعالى ما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (٣) أي لا مغيّر لوعده الله الذي وعد به رسله، والالتفات إلى الاسم الجليل، للإشعار بعلّة الحكم، فإن من موجبات الألوهية أن لا يغالبه أحد، ولا يقع منه خلف ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ جملة قسمة لتحقيق ما منحوا من النصر، أي ولقد جاءك يا محمد من خبر

(١) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٢) سورة النحل، آية: ١٤.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٧١ - ١٧٢.

الرسول، وخبر أممهم ماذا حلَّ بهم، فالمراد بنبيهم نصره تعالى للرسول، وجميع ما جرى بينهم وبين أممهم.

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي إن عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين، يُروى أن الحارث بن عامر أتى رسول الله ﷺ في محضر من قريش، فقالوا: يا محمد ائتنا بآية من عند الله تعالى ونحن نصدِّقك، فأبى الله أن يأتيهم بآية مما اقترحوا، فأعرضوا عنه ﷺ فشقَّ ذلك عليه لما أنه كان شديد الحرص على إيمان قومه، وكان يودُّ أن ينزلها الله تعالى طمعاً في إيمانهم، فنزلت الآية، يقال كَبُرَ على فلان الأمر، أي: شقَّ عليه المعنى: إن شقَّ عليك إعراضهم عن الإيمان، وأحببت أن تجيئهم إلى ما سألوه ﴿ فَإِنْ أَسْطَظَمْتَ ﴾ أي فإن قدرت ﴿ أَنْ تَبْنِغِي ﴾ أي تطلب ﴿ نَفَقًا ﴾ أي سَرَبًا ومنفذاً، والنَّفَقُ بفتح تين سَرَبٌ في الأرض له مخلص إلى مكان ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ تنفذ فيه إلى جوفها ﴿ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي مِرْقَاةً ومصعداً ﴿ فَتَأْتِيهِمْ بَيَاتٍ ﴾ مما اقترحوه من الآيات فافعل، أي لا تستطيع أيها الرسول الإتيان بشيء من تلك الآيات، ولا اقتضت مشيئة ربك أن يؤتيك ذلك، لعلمه بأنه لا يكون سبباً لما تحب من هدايتهم، والمقصود من هذا أن يقطع الرسول ﷺ طمعه من إيمانهم، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ أي ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم على الهدى والرشاد لفعله، بأن يوفقهم للإيمان، ولكن لم يفعل لخروجه عن الحكمة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي الجاهلين بدقائق شؤون الله تعالى، الذين لا يعرفون حكمة الله، وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثله، كما أن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ ﴾ لا يدل أنه ﷺ أطاعهم، على أن الجهل هنا ضد العلم، لا ضد الإيمان، وكلُّ جهل بهذا المعنى ليس عيباً، لأن المخلوق لا يحيط بكل شيء علماً، وإنما يُدْم الإنسان بجهل ما يجب عليه معرفته.

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي إنما يقبل دعوتك إلى الإيمان،

الذين يسمعون ما يُلقى إليهم سماع تفهم وتدبر، دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ والمراد من السماع هو سماع الفهم والتدبر، وما عداه كلا سماع ﴿وَالْمَوْتَى﴾ أي الكفار<sup>(١)</sup> كما قال الحسن ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ من قبورهم إلى المحشر ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ للجزاء فيجازيهم على كفرهم، فحينئذ يسمعون.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمٌّ مِّمَّا فَارَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُّمِّرُهُ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يَشَأِ يُجْعَلُهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أي رؤساء قريش الذين بلغ بهم الضلال، إلى حيث لم يقنعوا بما شاهدوه من الآيات، التي تخزُّ لها صُممُ الجبال ولم يعتدوا به ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ أي هلاً نزل على محمد ﴿آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ ملجئة للإيمان ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ من الآيات الملجئة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لما أن في تنزيلها إبطالاً لأساس التكليف، المبني على قاعدة الاختيار، ولأنها إذا نزلت فلم يؤمنوا، استوجبوا عذاب الاستئصال، فيقترحونها جهلاً، ويتخذونها ذريعةً إلى التكذيب، وتخصيصُ عدم العلم بأكثرهم، لما أنَّ بعضهم واقفون على حقيقة الحال، وإنما يفعلون ما يفعلون، مكابرةً وعناداً.

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كلامٌ مستأنف، مسوقٌ لبيان كمال قدرته عز

(١) شَبَّهَ تعالى الكفار بالأموات، لأنهم موتى القلوب، لا يفقهون ولا يعقلون ولا يسمعون، وكأنهم خشب مسنَّدة، قال قتادة: الآية مثلٌ للمؤمن والكافر، فالمؤمن يسمع كلام الله فينتفع به ويعقله، والكافر أصمُّ أبكم، لا يبصر هدى ولا ينتفع به «تفسير الطبري».

وجل، ليكون كالدليل على أنه تعالى، قادرٌ على تنزيل الآية، وإنما لا يُنزلها رحمةً بالعباد، أي ما من شيء يدب على وجه الأرض من صغير ولا كبير ﴿وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قيّد بالجنّاحين، لنفي المجاز، لأن غير الطائر قد يقال فيه: طار، إذا أسرع ﴿إِلَّا أُمَّمٌ﴾ أي طوائف مخلوقة ﴿أُمَّتَالِكُمْ﴾ كل أمة منها مثلكم، أحوالها محفوظة، ومصالحها مرعية ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ، فإنه مشتمل على ما يجري في العالم، من جليل ودقيق، لم يُهمل فيه أمر حيوان ولا جماد، وفيه بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغي، أي ما أغفلنا وما تركنا في الكتاب من شيء من الأشياء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني الأمم كلها، فينصف بعضها من بعض، كما روي أنه يأخذ للجماء من القرآن<sup>(١)</sup> أي ثم مرجعهم ومآلهم إلى ربهم فيجازيهم على أعمالهم<sup>(٢)</sup>.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بالقرآن، وسائر الحجج العقلية، والشرعية ﴿صُتُّوا وَبُكِّمُوا﴾ هذا من التشبيه البليغ، أي إنهم كالصمّ، وكالبكم، لا يسمعون الآيات سماعاً تتأثر منه نفوسهم، ولا يقدرّون أن ينطقوا بالحق، ولذلك لا يستجيبون ويقولون في الآيات ما يقولون ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي في ظلمة الكفر، وفي ظلمة الجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد، والمراد أنهم غارقون في الجهل وسوء الحال، فإن الأصم الأبكم، إذا كان بصيراً، ربما يفهم شيئاً بإشارة غيره، وأما إذا كان مع ذلك أعمى، فينسُدُّ عليه باب الفهم بالكلية، ولذا شبّهوا بالموتى ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلِّهِ﴾ أي أمره إلى ربه،

(١) روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

(٢) قال الطبري: فالرب الذي لم يضيع حفظ أعمال البهائم، والدواب، والطيور، حتى حفظ عليها حركاتها، وأفعالها، وأثبت ذلك في أم الكتاب - اللوح المحفوظ - وحشّرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء، كيف يضيع أعمالكم، ويفرط في حفظها، ويترك جزاءكم في الآخرة؟ مع ما خصكم من العقل والفهم الذي لم يعطه الطير والبهائم؟.

فمن يشأ الله إضلاله، يخلق فيه الضلال، لا بطريق الجبر، لا بطريق الكسب والاختيار منه ﴿وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بأن يرشده إلى الهدى ويحملة عليه، والآية دليل لأهل السنة على أن الإيمان والكفر بإرادته سبحانه ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤١) ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تَشْكُرُونَ﴾ (٤٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٥) ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٦).

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ هذا قولٌ أمر الله رسوله أن يوجهه إلى الكفار، مذكراً إياهم بما أودع في فطرتهم، من توحيده عزَّ وجل، ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض يفسد فطرتهم وعقولهم، قال الفراء: للعرب في (أرأيت) لغتان: إحداهما رؤية العين، فإذا قلت للرجل أرأيتك، كان المراد هل رأيت نفسك، ثم يشئ ويجمع، والثاني أن تقول: أرأيتك وتريد أخبرني، وإذا أردت هذا المعنى تركت التاء مفتوحة على كل حال، تقول: أرأيتك أرأيتكما أرأيتكم أي أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ حسبما أتى الأمم السابقة ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ التي لا محيص عنها البتة ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ هذا مناط الاستخبار ومحط التبكيث ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أي إن كنتم من الصادقين أخبروني من تدعون؟ والمراد إقامة الحجة عليهم، أنهم يفزعون إلى الله وقت الشدة، لينجيهم من عظيم البلاء، ولهذا قال بعده.

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ أي بل تخصصونه تعالى بالدعاء، وتقديم المفعول لإفادة التخصيص ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي فيفرج عنكم عظيم البلاء ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ أن يتفضل عليكم، يعني أن قبول دعائهم تابع لمشيئة الله المبنية على حكم خفية، قد يقبل وقد لا يقبل ﴿ وَتَنْسَوْنَ مَا قُتِرْتُمْ ﴾ أي وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت، لما ركز في العقول، من أنه تعالى القادر على كشف الضر، دون غيره من الخلق، والنسيان مجاز عن الترك، كما روي عن ابن عباس، ويحتمل أن يكون على حقيقته، فإنهم لشدة الهول ينسون ذلك حقيقة.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ أي والله لقد أرسلنا رسلاً كثيرين بعثناهم ﴿ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ قَبْلِكَ ﴾ قبل زمانك يا محمد فكذبوا رسلهم ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ بِالْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ أي فامتحنناهم بأنواع الشدائد، بالبيأساء وهي شدة الفقر في العيش، والضراء وهي الأمراض والأسقام ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أي لكي يدعوا الله تعالى في كشفها، بالتضرع والتذلل، ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم.

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ أي هلاً تضرعوا بالتوبة حين جاءهم العذاب ليصرف الله عنهم البلاء؟ أي فلم يتضرعوا حينئذ مع وجود المقتضي، وانتفاء المانع، و«لولا» هنا ليست تحضيضية لأنها تختص بالمضارع، ولما كان التضرع من لين القلب، أخبر عن قساوة قلوبهم فقال: ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فكأنه قيل: فما لانت قلوبهم، ولكن قست، أي استمرت على ما هي عليه من القساوة، وازدادت عناداً وفجوراً ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بيان للصارف لهم عن التضرع، وأنه لا مانع عندهم إلا قساوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أي تركوا ما دعاهم الرسل إليه، وانهمكوا في معاصيهم، ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من السعة، والصحة، وصنوف النعمة، على منهاج

الاستدراج، إلزاماً للحق، وإزاحة للعلة، وامتحاناً لهم بالشدة والرخاء، فقد روي من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً: «إذا رأيت الله تعالى يُعطي العبد في الدنيا، وهو مقيم على معاصيه، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآية»<sup>(١)</sup> ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾ بطروا ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ من النعم، يعني حتى إذا اطمأنوا بما أُتبع لهم، وبَطَرُوا وَأَشْرُوا ﴿أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً﴾ بعذاب الاستئصال فجأة، ليكون أشد عليهم وقعاً ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ متحسرون غاية الحسرة، آيسون من كل خير، والإبلاس: الانكسار والحزن، يقال أبلس فلان: إذا سكت غمماً، وقيل: للإبلاس ثلاثة معان في اللغة: الحزن، والحسرة، واليأس، وهي معان متقاربة.

﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ﴾ أي آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد، قال الأصمعي: الدابر الأصل، ومنه قطع الله دابره أي أصله، والمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب، ولم يبق منهم أحد، ووضع الظاهر ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ للإشعار بعلّة الحكم، فإن هلاكهم بسبب ظلمهم، لأنهم وضعوا الكفر موضع الشكر، والمعاصي مقام الطاعات ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما جرى عليهم من النكال والإهلاك، فإن إهلاك الكفار والعصاة، تخلص لأهل الأرض من أعمالهم الخبيثة، نعمة جليلة، مستوجبة للحمد.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَنَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

(١) الحديث أخرجه الطبراني والبيهقي ورواه أحمد في المسند ٤/١٤٥.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بتكرير التبكيت عليهم، وهذا أيضاً استخبار أي قل أخبروني ﴿ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ ﴾ بأن أصمكم، وأعماكم بالكلية ﴿ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ بأن غطى عليها، بما لا يبقى لكم معه عقل وفهم، فأصبحتم لا تسمعون قولاً، ولا تبصرون طريقاً، ولا تعقلون نفعاً ولا ضرراً ﴿ مَنْ لِلَّهِ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾؟ من استفهامية أي أخبروني إن سلب الله مشاعركم، من إله غيره تعالى يأتيكم بها؟ ﴿ أَنْظَرَ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ تعجب لرسول الله ﷺ، من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة، أي انظر كيف نكرّرها، تارةً من جهة المقدمات العقلية، وتارةً من جهة الترهيب والترغيب، وتارةً بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ﴿ تُعْهَمُ يَصْدِفُونَ ﴾ يُعرضون عن ذلك، و«ثم» لاستبعاد الإعراض، بعد تصريف الآيات، يقال: صدف عنه: أي أعرض، وأصدفه عن كذا أماله عنه، فالجملة داخلة في التعجب، أي إنهم بعد ذلك التصريف، الموجب للإقبال والإيمان، يُذَبِّرُونَ ويكفرون.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ تبكيت آخر لهم بإلجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم ﴿ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ ﴾ أي العاجل الخاص بكم، كما أتى من قبلكم من الأمم ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة بأن لم تظهر أماراته ﴿ أَوْجَهَرَةً ﴾ معاينة بعد ظهور أماراته، وتقديم البغته لكونه أهول ﴿ هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي إلا أنتم، وضع الظاهر موضع الضمير، تسجيلاً عليهم بالظلم، وإيداناً بأن مناط إهلاكهم ظلمهم، والهلاك وإن عمّ الأبرار والأشرار، يكون الهلاك يختص بالشريرين، لأن الأختيار يستوجبون بسبب نزول المضار الثواب، والأشرار يكونون خسروا الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي وما نرسل المرسلين إلى الأمم ﴿ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ من أطاع منهم بالثواب ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ من عصى منهم بالعذاب، ولم نرسلهم ليقترح عليهم، ويتلهم بهم ﴿ فَمَنْ آمَنَ ﴾ بما يجب الإيمان به

﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ما يجب إصلاحه ﴿ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي فلا خوف عليهم فيما يقدمون عليه، ولا هم يحزنون على ما خلفوه في الدنيا.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي التي بلّغتها الرسل لهم، عند التبشير والإنذار ﴿ يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ ﴾ أي يصيبهم العذاب الذي أنذروه عاجلاً، أو آجلاً، جعل العذاب ماساً لهم، كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغنى بتعريفه عن التوصيف ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر، الذي هو الإصرار على التكذيب.

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَيَّ رَبَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٠﴾

﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول للكفرة الذين يقترحون عليك ما يقترحون ﴿ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ أي مقدوراته، مفردها خزينة أو خزانة، وهي في الأصل ما يُحفظ فيه الأشياء النفيسة، أي قل للكفرة الذين يقترحون عليك، لا أدعي أن خزائن مقدوراته تعالى، مفوضة إليّ، أتصرف فيها حتى تقترحوا عليّ تنزيل الآيات، أو إنزال العذاب، أو قلب الجبال ذهباً، أو غير ذلك مما لا يليق بشأني ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ ما لم يُوحَ إليّ حتى

تسألوني عن الساعة أو نحوها ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي من جنس الملائكة، أقدر على ما يقدرون عليه، حتى تكلفوني مما لا يطيق به البشر، من الرقي في السماء ونحوه ﴿ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلي من ربي. تبرأ ﷺ عن دعوى الألوهية، والمملكة، وادعى النبوة التي هي من كمالات البشر، رداً لاستبعادهم دعواه ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ مثل للضال والمهتدي، والمؤمن والكافر، والاستفهام إنكاري، والمراد هل يتساوى من يعلم الحقائق، ومن لا يعلمها؟ كذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، وفيه التنفير عن الضلال، والترغيب في الاهتداء ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾؟ أي ألا تسمعون هذا الكلام الحق، فلا تتفكرون فيه؟ لتمييزوا بين ادعاء الحق والباطل؟.

﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ ﴾ أي أنذر وخوف يا رسول الله بالقرآن المؤمنين الصادقين، الذين يُرجى إيمانهم، لا الأموات الذين لا ينجع فيهم دواء الإنذار، إنما الذين يتوقع منهم الانتفاع ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ هم المجوزون للحشر، المؤمنون بالحساب والجزاء، فإن الإنذار ينجع فيهم، دون الفارغين الجازمين باستحالته ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ حال من ضمير يُحشروا، والمعنى: أنذر به الذين يخافون حشرهم، غير منصورين من جهة أنصارهم بزعمهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ﴾ أي لكي يتقوا الكفر والمعاصي في الدنيا.

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ سبب نزول الآية ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: مرّ الملائمة من قريش على النبي ﷺ، وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا يا محمد: أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء من الله تعالى عليهم من بيننا؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن تتبعك، فأنزل الله هذه الآية<sup>(١)</sup> ﴿ بِالْعُدْوَةِ وَالْمَشِيِّ ﴾ أي

(١) أخرجه الطبراني وأحمد في المسند، وأخرجه مسلم بنحوه في فضائل الصحابة رقم

في الصباح والمساء، وأصل الغدّة البكرة، ومعنى العشيّ آخر النهار، والمراد بهما ههنا الدوام، كما يُقال: فعله مساءً وصباحاً، إذا داوم عليه، ولم يحصل منه عجز أنه طردهم، وقرب منه زعماء قريش، وإنما همّ أن يجعل لأولئك المؤمنين وقتاً خاصاً، ولأشراف قريش وقتاً آخر، ليتألفهم، فيقودهم إلى الإيمان، فنزلت الآية توجهه إلى الطريق الأسلم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي يدعون ربهم مخلصين فيه، قيّد الدعاء بالإخلاص، تنبيهاً على أنه ملاك الأمر، ورتب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم، وينافي إبعادهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما عليك شيء من حساب إشراكهم وأعمالهم الباطلة، ولا تؤخذ بذنوبهم وإجرامهم، وإنما وظيفتك حسبما هو شأن منصب الرسالة، النظر إلى ظواهر الأمور، وإجراء الأحكام على موجبها، وتفويض الباطن إلى اللطيف الخبير ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ذكره للمبالغة أي: لا تؤاخذ بحسابهم، حتى يهتك إيمانهم، ولا هم ينفعونك حتى تجاملهم وتعطيهم ما يريدون ﴿فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فالمعنى: إن أولئك الفقراء يستحقون التقريب، فبطردهم تضع الشيء في غير موضعه، فتكون ظالماً بتعديك حدود الله، وهذا لبيان الأحكام، وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السلام.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي ابتلينا بعضهم ببعض، ابتلينا الغني بالفقير، والشريف بالوضيع، فقدّمنا هؤلاء الضعفاء، على أشرف قريش، بالسبق إلى الإيمان، وقد مضت سنة الله تعالى، بأن يسبق الفقراء، إلى إجابة دعوة الرسل الكرام، وإلى دعوة كل إصلاح، لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون، لأنه يشقّ عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم، وعلى هذه السنة جرى الملام من قوم نوح، وهود، وصالح وغيرهم ﴿لِيَقُولُوا﴾ اللام للعاقبة أي ليقول بعض الأغنياء، مشيرين إلى الفقراء، محقرين لهم، نظراً لما بينهما من التفاوت الدنيوي ﴿أَهْتُولَاءٍ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ بأن وقّهم لإصابة الحق، والفوز بما يسعدهم عنده سبحانه ﴿مَنْ يَبِينًا﴾ أي من دوننا، ونحن الرؤساء وهم

الفقراء؟ وهو إنكار لأن يُحَصَّ هؤلاء من بينهم بإصابة الحق، والسَّبق إلى الخير، كقولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾<sup>(١)</sup> ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوقفه، وبمن لا يقع منه فيخذه؟ والاستفهام لتقرير علمه البالغ بذلك، والمعنى: أليس الله عالماً على أتم وجه، محيطاً بعلمه بالشاكرين لنعمه حتى يستبعدوا إناعامه!! .

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ وُصفوا بالإيمان، كما وُصفوا بالإخلاص، تنبيهاً على إحرازهم لفضيلتي: العلم، والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يُقَرَّب ولا يطرد، ويُعزَّز ولا يُذَلَّ، ويُبَشَّر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة<sup>(٢)</sup> ﴿فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ أمرٌ منه تعالى بتبشيرهم بالسلامة عن كل مكروه، وأن يبدأهم بالسلام ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجبها على ذاته المقدسة، بطريق التفضل والإحسان، بسعة رحمته تعالى، وفي التعرض لعنوان الربوبية، إظهار لغاية اللطف بهم ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلْتُمْ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَلَةٍ﴾ أي من عمل ذنباً، جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ عن ذلك ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد عمل المنكر والسوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي في توبته، بأن أتى بشروطها، من التدارك، والعزم على عدم العود أبداً<sup>(٣)</sup> ﴿فَأَنْتُمْ عُقُورٌ رَجِيمٌ﴾ أي فشأنه سبحانه أنه مبالغ في المغفرة والرحمة له .

(١) سورة الأحقاف، آية: ١١ .

(٢) قال القرطبي ٤٣٥/٦: نزلت هذه الآية في الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام» .

(٣) هذه قاعدة من قواعد الدين، أمر ﷺ بأن يبلغها لأمته، الذين يقعون في بعض المنكرات جاهلين عاقبتها، بأن يتوبوا وينيبوا ويصلحوا عملهم، وألاً يغتروا بمغفرة الله ورحمته، فيحملهم الغرور على التفريط في جنب الله فإن ﴿رحمة الله قريب من المحسنين﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ نَفِّصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ  
 أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيحُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا  
 مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا  
 تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ  
 أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ  
 بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي  
 الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ  
 وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ ومثل ذلك التفصيل الواضح ﴿ نَفِّصِلُ ﴾ دائماً ﴿ الْآيَاتِ ﴾ أي القرآنية في صفة أهل الطاعة، وأهل الإجمام، المصّرّين منهم والأوابين ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ولتستوضح يا رسول الله سبيلهم فتعامل كلاً منهم بما يستحقه، ولذلك فصلنا هذا التفصيل، ولم يذكر سبيل المؤمنين، لأن ذكر أحد القسمين، يدلُّ على الآخر.

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين، قطعاً لأطماعهم الفارغة عن ركونك إليهم إني صُرفت ومُنعت بالأدلة الحقانية، والآيات القرآنية ﴿ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ ﴾ أي عن عبادة الآلهة الذين ﴿ تَدْعُونَ ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ والمراد بهم الأصنام، إلا أنه عبّر بصيغة العقلاء، جرياً على زعمهم ﴿ قُلْ لَا آتِيحُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾ تكرير الأمر اعتناءً بشأن الأمور به، وفي هذا القول استجهاً لهم، وتنصيب على أنهم تابعون لأهواء باطلة، ليسوا على شيء من الدين ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا ﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت، ولن أكون في زمرة أهل الرشاد، ولهذا قال بعده ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ والمراد وما أنا في شيء من الهدى، حتى أعدّ في عدادهم، إن أنا سايرتكم على أهوائكم في عبادة غير الله.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تبيينٌ للحق الذي عليه ﷺ أي: أنا على بصيرة من شريعة الله عز وجل، والمراد بها الوحي والحجج العقلية، والتنوين للتفخيم أي بينة جليلة الشأن ﴿مِن رَّبِّي﴾ أي كائنة من جهته سبحانه ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ الضمير للرب، أي كذبتُم به حيث أشركتم به غيره والمعنى: إني على بينة كائنة من ربي، وكذبتُم بالله، بالأخبار التي من جملتها الوعيد بمجيء العذاب، وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي من العذاب الذي كانوا يستعجلونه، بقولهم بطريق الاستهزاء: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟ أي ليس ما تستعجلونه في حكمي وقدرتي، حتى أجيء به ﴿إِنَّ الْحُكْمَ﴾ أي ما الحكم في تأخير ذلك ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحده من غير أن يكون لغيره دخل بما فيه بوجه من الوجوه ﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ أي يتبع الحق والحكمة، فيما يحكم به ويُقدَّرُه ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلَيْنِ﴾ أي خير الحاكمين بين عباده، يحكم بالعدل، ويفصل بين الحق والباطل، ولا يظلم أحداً.

﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي﴾ أي في قدرتي ومكنتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿لَقَضَى الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لأهلككم عاجلاً غضباً لربي لأستريح منكم، ولكن الأمر بيد الله عز وجل، قال ابن عباس: أي لو كان الأمر بيدي، لم أمهلكم ساعة ولأهلككم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي بحالهم، بأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج، لتشديد العذاب، ولذلك لم يفوض الأمر إليّ، ولم يقض بتعجيل العذاب.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه مستعار من المفاتيح التي جمع مفتاح بالكسر، وهو المفتاح الذي تفتح به الخزائن والأبواب، والمقصود أنه سبحانه، هو العالم بالمغيبات جميعها كما هي ابتداء ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لمضمون ما قبله، والمعنى: إن ما تستعجلونه من العذاب، ليس مقدوراً لي حتى ألزمتكم به، ولا معلوماً لدي لأخبركم وقت نزوله، بل هو مما يختص به عز وجل، قدرةً وعلماً، حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكم والمصالح. روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «مفتاح الغيب

خمس، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلا الله، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله، وما تعلم نفس ماذا تكسب غداً، وما تعلم نفس بأي أرض تموت، ولا يدري أحد متى يجيء المطر، إلا الله»<sup>(١)</sup> فإن قلت: لم عدّ هذه الخمس، وكلّ المغيبات لا يعلمها إلا الله؟ الجواب لأن شأنهم في الجاهلية الاهتمام بهذه الأشياء فخصّها بالذكر ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هذه تكملة له وتنبية، على أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء، أي يعلم ما فيهما على اختلاف أجناسها، وكثرة أفرادها سواء كانت في البر والبحر ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها، والمكان الذي سقطت فيه ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ﴾ أي في بطون الأرض، وكنى بالظلمة عن البطن، لأنه لا يدرك ما فيه، كما لا يدرك في الظلمة ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ قيل: الرطب الماء، واليابس البادية، أو ما ينبت، وما لا ينبت<sup>(٢)</sup> ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ في علمه تعالى مسجّل في اللوح المحفوظ، الذي هو محل معلوماته سبحانه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾﴾  
 وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفْظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦٢﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٣﴾﴾

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرعد ٨/ ٣٧٥ فتح الباري.

(٢) قال في البحر المحيط: وانظر إلى حُسن ترتيب هذه المعلومات، حيث بدأ أولاً بأمر لا ندركه نحن بالحس وهو «مفتاح الغيب» ثم بأمر ندرك كثيراً منه بالحس وهو «البر والبحر» ثم ثالثاً بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علو، والثاني سفلي وهو اختفاء حبة في بطن الأرض، فدلّ ذلك على أنه تعالى عالم بالكيلات والجزئيات، لا يغيب عن علمه شيء، في الأرض ولا في السماء.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ ينيمكم فيه، استعير التوفي من الموت للنوم، لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي يعلم ما كسبتم فيه، خصَّ الليل بالنوم، والنهار بالكسب، جرياً على المعتاد ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ﴾ أي يوقظكم في النهار، أطلق البعث ترشيحاً للتوفي، وتوسط قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ بينهما، لبيان ما في بعثهم من عظيم الإحسان إليهم، بالثنيبه على أن ما يكتسبونه من السيئات، مع كونها موجبة لإهلاكهم، يفيض عليهم الحياة، ويمهلهم كما ينبىء عنه كلمة التراخي ﴿ثُمَّ﴾ كأنه قيل: هو الذي يتوفاكم في جنس الليالي، ثم يبعثكم في جنس النهار، مع علمه بما ستجرحون فيها ﴿لِيُقَضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معيّن لكل فرد، بحيث لا يكاد يتخطى أحد ما عُيّن له طرفه عين، وهو أجل بقائه في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره أصلاً ﴿مَرَجِعُكُمْ﴾ أي مرجعكم ومصيركم بالموت ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة بأعمالكم التي كنتم تعملونها في تلك الليالي والأيام قيل: الحواس تقبض عند النوم، فأما الروح لا تقبض، إلا إذا انقضى الأجل، وكما يُرَدُّ الإحساس بعد الإيقاظ، فكذا الأنفس تحيا بعد موتها.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي المتصرف في أمورهم، يفعل بهم ما يشاء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، والحكمة فيه أن المكلف، إذا علم أن أعماله تُكتب عليه، وتُعرض على رؤوس الأشهاد، كان ذلك أجزر له عن المعاصي، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ والمقصود ضبط الأعمال، فمنهم من يقول: إنهم يكتبون الطاعات والمعاصي، بأسرها، بدليل قوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً

(١) سورة ق، آية: ١٨.

وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴿١﴾؟ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ حتى للغاية تجعل ما بعدها غاية لما قبلها، كأنه قيل: ويرسل عليكم حفظة مدة حياتكم، حتى إذا انتهت مدة أحدكم، وجاءت أسباب الموت ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ المفوضون لذلك وهم ملك الموت وأعوانه، وانتهى هناك حفظ الحفظة قال الكلبي: إن ملك الموت هو الذي يلي ذلك، ثم يدفع الروح إن كانت مؤمنة إلى ملك الرحمة، وإن كانت كافرة إلى ملك العذاب، وقد جاء إسناد الفعل إلى ملك الموت فقط باعتبار أنه المباشر، وإلى الله تعالى باعتبار أنه سبحانه الأمر الحقيقي ﴿وَهُمْ﴾ أي الرسل ﴿لَا يَفْرُطُونَ﴾ بالتواني والتأخير.

﴿ثُمَّ رُدُّوْا﴾ أي رُدَّ العباد بعد البعث ﴿إِلَىٰ اللَّهِ﴾ أي إلى حكمه وجزائه ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ أي مالكهم وخالقهم ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ لأن المولى هناك يراد به الناصر ﴿الْحَقِّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره بوجه من الوجوه ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يحاسب جميع الخلائق بنفسه في أسرع زمان، لأنه لا يحتاج إلى فكر وروية، ولا يشغله حساب عن حساب، ثم إن كيفية الحساب مما لا تحيط بتفصيلها عقول البشر، وليس لنا إلا الإيمان به، مع تفويض كيفية ذلك إلى الله عز وجل.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنجَلْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَّرِفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين: من ينجيكم من شدائد البر والبحر الهائلة، التي تبطل الحواس، وتدهش العقول، والظلمات: كناية عن مخاوفهما وأهوالهما ﴿ تَدْعُونَهُمْ قَضْرًا وَخُفْيَةً ﴾ أي إعلاناً وإسراراً كما روي عن ابن عباس والحسن، ويحتمل أن يُراد بهما باللسان، والقلب ﴿ لَئِنْ أُنجَيْنَا ﴾ أي تدعونه قائلين لئن أنجيتنا ﴿ مِنْ هَذِهِ ﴾ الشدة والورطة التي عبّر عنها بالظلمات ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي الراسخين في الشكر، المداومين عليه لأجل هذه النعمة، لأن الإنسان في هذه الحالة، ينقطع رجاؤه عن كل ما سواه، وتشهد الفطرة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله عزّ وجلّ، ولهذا أخلصوا وتضرعوا.

﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا ﴾ أي الله وحده ينجيكم من هذه الشدائد ﴿ وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ﴾ أي غم يأخذ بالنفس كسائر الهموم والأكدار، والأمراض والأسقام ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴾ تعودون إلى الشرك، ولا توفون بالعهد.

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ﴾ هذا تذكير بقدرته تعالى على تعذيبهم، إثر التذكير بقدرته على تنجيهم، وإنذار بأن عاقبة كفران النعم، أن تزول وتحل محلها النقم، والتنوين للتفخيم أي عذاباً عظيماً ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ أي من جهة العلو كالصيحة، والحجارة، والريح ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ كالرجفة، والخسف، والإغراق ﴿ أَوْ يَلِيْسَكُم ﴾ أي يخلط أمركم عليكم بجعلهم مختلفي الأهواء ﴿ شَيْعًا ﴾ جمع شيعة أي يجعلكم فرقا متحزبين وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره ﴿ وَيُذِيقُ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ أي يقاتل بعضهم بعضاً، أخرج أحمد ومسلم عن ثوبان أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إني سألتُ ربي لأمتي، أن لا يهلكها بسنة عامة - أي بقحط أو جذب - فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها»<sup>(١)</sup> الحديث. ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرْتَهُ الْآيَاتِ ﴾ على

(١) طرف من حديث طويل أخرجه مسلم رقم ٢٨٨٩ أوله «إن الله زوى لي الأرض فرأيتُ=

أنحاء شتى من الطريق الحسي، والعقلي، بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي كي يعلموا جلية الأمر، فيرجعوا عما هم عليه، من المكابرة والعناد.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ .

﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أي وكذب بهذا القرآن المجيد ﴿قَوْمُكَ﴾ أي المعاندون منهم لغاية عتوهم وضلالهم ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي كذبوا به والحال أنه الكتاب المنزل بالحق ﴿قُلْ﴾ لهم منبهاً ﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي بحفيظ لأمنعكم من التكذيب، وأجبركم على التصديق، إنما أنا منذر وقد خرجت عن العهدة حيث أخبرتكم.

﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ أي لكل شيء من الأنباء، التي من جملتها عذابكم ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أي وقت استقرار ووقوع البتة ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند وقوعه ما يحلُّ بكم من العذاب.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا﴾ الخوض: الدخول فيها بالتكذيب، والاستهزاء، والظعن فيها، كما هو دأب قريش في أنديتهم ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بترك مجالستهم، والقيام عن مجلسهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ﴾ أي كلام ﴿غَيْرِهِ﴾ أي غير آياتنا ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يشغلك فتنسى النهي فتجالسهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى﴾ أي بعد تذكر النهي، والخطاب

= مشارقتها ومغاربها، وإنَّ ملكَ أمتي سيبلغُ ما زوي لي منها.. الحديث وأخرجه الترمذي رقم ٢١٧٧ وأبو داود رقم ٤٢٥٢ كلهم في باب الفتن.

لِلرَّسُولِ ﷺ وَالْمَرَادُ غَيْرُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ النِّسْيَانَ الَّذِي مَنَشُوهُ الْوَسَاوِسُ الشَّيْطَانِيَّةُ مَحَالٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَي مَعَهُمْ، فَوَضَعَ الْمَطْهَرُ مَوْضِعَ الْمَضْمَرِ نِعْيًا عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ بِذَلِكَ الْخَوْضِ ظَالِمُونَ، وَأَضَعُونَ التَّكْذِيبَ وَالِاسْتِهْزَاءَ مَوْضِعَ التَّصْدِيقِ وَالتَّعْظِيمِ، رَاسِخُونَ فِي ذَلِكَ .

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وَمَا يَلِزَمُ الْمُتَّقِينَ، مِنْ قَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَي مِمَّا يَحْسَبُونَ عَلَيْهِ مِنْ قَبَائِحِهِمْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: كَيْفَ نَقْعُدُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَنَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَهُمْ يَخْوِضُونَ فِيهِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَكِنْ ذَكَرْنِي﴾ اسْتَدْرَاكٌ أَي وَلَكِنْ يَذْكُرُونَهُمْ وَيَمْنَعُونَهُمْ، بِمَا أَمَكُنْ، وَيُظْهِرُونَ لَهُمُ الْكِرَاهَةَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَي يَجْتَنِبُونَ الْخَوْضَ حَيَاءً أَوْ كِرَاهَةً لِمَسَاءَتِهِمْ .

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتَهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿وَذَرِ الَّذِينَ﴾ الْخَطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَي دَعِ هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ الَّذِينَ ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الَّذِي كَلَّفُوهُ، وَأَمَرُوا بِإِقَامَةِ أَحْكَامِهِ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ حَيْثُ سَخَرُوا بِهِ وَاسْتَهْزَؤُوا، أَوْ اتَّخَذُوا مَا يَتَدِينُونَ بِهِ، شَيْئًا مِنَ اللَّعْبِ وَاللَّهْوِ ﴿وَعَرَّتَهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الْفَانِيَّةُ، وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا، حَتَّى زَعَمُوا أَنَّ لَّا حَيَاةَ بَعْدَهَا، وَالْمَرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ﴾ تَرَكَ مَعَاشِرَتَهُمْ وَمَخَالَطَتَهُمْ، لِأَنَّ تَرَكَ الْإِنْذَارَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَكَرَ بِهِمْ﴾ أَي بِالْقُرْآنِ مِنْ يَصْلُحُ لِلتَّذْكَيرِ، وَقَدْ جَاءَ مُصْرَحًا بِهِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدِ﴾ (١)

(١) سورة ق، آية: ٤٥ .

والقرآن يفسر بعضه بعضاً ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي لثلا تبسل أي تُسلم للهلكة، والمعنى: وذكر الناس بالقرآن، لثلا تُبسل كل نفس بما كسبت، أي تُسلم وتُحبس وتُترك في العذاب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي ليس للنفس من غير الله تعالى ناصر ينصرها، أو قريب يتولى أمرها ولا شفيع يشفع لها، كقوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ وَإِنْ تَعَدَّلَ ﴾ تفدي تلك النفس ﴿ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ كل فداء مما في الأرض ﴿ لَا يُؤَخِّذُ مِنْهَا ﴾ أي ذلك الفداء، ولو جاءت بملء الأرض ذهباً ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ﴾ أي أولئك المتخذون دينهم لعباً ولهواً، المغترون بالحياة الدنيا، هم الذين أهلكوا بما كسبوا ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ من ماء مغلي، تتقطع منه أمعاؤهم ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بنار تشتعل بأبدانهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم المستمر في الدنيا، مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضاً حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿ بما كسبوا ﴾ لأنه العمدة في أسباب العذاب، والأهم في باب التحذير.

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أِقْتِنَا قُلْ إِنَّكَ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأْمُرْنَا لِلنَّبِيِّ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَنَّا الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

(١) سورة المدثر، آية: ٣٨.

(٢) سورة غافر، آية: ١٨.

﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله ﴿ اُنْدَعُوا مِنْ دُوبِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾  
الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي أنعبد متجاوزين عبادة الله، الجامع  
لجميع صفات الألوهية، التي من جملتها القدرة على النفع والضرر، ما لا  
يقدر على نفعنا إذا عبدناه، ولا على ضررنا إذا تركناه، وأدنى مراتب  
المعبودية القدرة على ذلك ﴿ وَتُرَدُّ عَلَيَّ أَعْقَابِنَا ﴾ أي ونرد إلى الشرك،  
والتعبير عنه بالرد على الأعقاب، لزيادة قبحه، مع ما فيه من الإشارة إلى  
كون الشرك، حالة قد بُذت وراء الظهر ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ ﴾ أي هدانا  
للإسلام، وأنقذنا من عبادة الأصنام ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ ﴾  
نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي أنردُ رداً مثل ردِّ الذي استهوته الشياطين،  
والاستهواء: من هوى في الأرض إذا ذهب فيها، أي كالذي تخطفته مردة  
الشياطين وأضلته، فذهبت به في المفاوز والقفار، والكلام وارد على  
التمثيل، حيث شبه فيه من خلص من الشرك، ثم نكص على عقبيه، بحال  
من ذهبت به الشياطين في أغوار الأرض وأضلته، بعد ما كان على الجادة  
المستقيمة<sup>(١)</sup> ﴿ حَيْرَانَ ﴾ أي تائهاً ضالاً عن الجادة، لا يدري ما يصنع؟  
﴿ لَهُ ﴾ أي للمستهوى ﴿ أَصْحَبٌ ﴾ رفقة ﴿ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ﴾ أي إلى  
الطريق المستقيم ﴿ أَقْتَنَّا ﴾ أي يقولون اتتنا، وفيه إشارة إلى أنهم مهتدون،  
ثابتون على الطريق المستقيم، قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله، لمن  
يدعو إلى عبادة الأصنام، ولمن يدعو إلى عبادة الله تعالى، كمثل رجل في  
رفقة، ضلَّ به الشيطان عن الطريق المستقيم، وجعل أصحابه يدعونه  
إليهم، وجعل الشيطان يدعوه إليه، فيبقى حيران لا يدري أين يذهب؟  
﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء الكفار ﴿ إِنْ هُدَى اللَّهُ ﴾ الذي هدانا إليه، وهو الإسلام  
﴿ هُوَ الْهُدَى ﴾ أي وحده وما عداه ضلال محض ﴿ وَأَمْرَنَا لِئُسَلِّمَ لِرَبِّ

(١) هذا مثل ضربه الله عزَّ وجل لمن عبد غير الله، من وثنٍ وصنم، فهو في تخبطه  
وضلاله، كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته، وسارت به في المفاوز والمهالك،  
فألقت في هوةٍ سحيقة، ولم يستجب لداعي الهدى والفلاح.

الْعَلَمِينَ ﴿ أَي وَأَمَرْنَا بِأَنْ نَسْتَسَلِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَنَخْلُصَ الْعِبَادَةَ لَهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا وَأَحْوَالِنَا.

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا ﴾ عطف على موضع لنسلم، كأنه قيل: أمرنا أن نسلم، وبأن نقيم الصلاة ﴿ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أَي وَإِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ مَرْجِعُ الْخَلَائِقِ لِلْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ.

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أريد بخلقهما خلق ما فيهما أيضاً، وعدم التصريح لظهور اشتمالهما على جميع العلويات والسفليات ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أَي قَائِماً بِالْحَقِّ، لَا عَبَثاً وَبِاطِلًا، وَإِظْهَارًا لِلْحَقِّ، لِأَنَّ صِنْعَهُ تَعَالَى دَلِيلٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَنَظِيرُ الْآيَةِ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِاطِلَالٍ ﴾ (١) ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ ﴾ استئناف لبيان أن خلقه للأشياء، ليس مما يتوقف على مادة أو مدة، بل يتم بمحض الأمر، أَي وَقَضَاؤُهُ سَبْحَانَهُ كَائِنًا، حِينَ يَقُولُ لشيءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ «كُنْ» فَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ بِدُونِ تَأْخِيرٍ ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ أَي اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ لَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، صُورَةٌ وَمَعْنَى، بِانْقِطَاعِ الْعِلَاقِ الْكَائِنَةِ فِي الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٢) وَالصُّورُ: قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ، وَيَعْرِفُ النَّاسُ أُمُورَ الْآخِرَةِ، بِأَمْثَالِ مَا شَاهَدُوا فِي الدُّنْيَا، وَمِنْ عَادَةِ النَّاسِ، النَّفْخُ بِالْبُوقِ، عِنْدَ الْأَسْفَارِ، وَهُوَ تَمَثِيلٌ لِانْبِعَاطِ الْمَوْتِ بِانْبِعَاطِ الْجَيْشِ، إِذَا نَفَخَ بِالْبُوقِ، رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ: «جَاءَ أَعْرَابِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا الصُّورُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ» (٣) ﴿ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أَي كُلِّ غَيْبٍ وَشَهَادَةٍ ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ فِي كُلِّ مَا يَفْعَلُهُ ﴿ الْحَيُّ ﴾ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ وَالْجَلِيَّةِ.

(١) سورة ص، آية: ٢٧.

(٢) سورة غافر، آية: ١٦.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١٢٦/٢ وأبو داود رقم ٤٧٤٢ والترمذي رقم ٢٤٣٢ ورواه مسلم بلفظ «إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ».

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْنَمَاءَ إِلَهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَ إِذْ قَالَ رَبِّي وَأَنَا مِنَ الْمَوْفِقِينَ ﴾ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَاتِ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأَحِبُّ الْأَفْلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّرُ إِلَهِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي اذكر يا رسول الله لهؤلاء الكفار، وقت قول إبراهيم عليه السلام، الذي يدعون أنهم على ملته، موبخاً ﴿ لِأَبِيهِ أَسْنَمَاءَ ﴾ على عبادة الأصنام، فإن ذلك مما ينادي بفساد طريقتهم ﴿ أَسْنَمَاءَ إِلَهَةً ﴾؟ أي أتجعلها لنفسك آلهة؟ على توجيه الإنكار إلى اتخاذ الجنس ﴿ إِنِّي أَرَأَيْتَ إِذْ قَالَ رَبِّي وَأَنَا مِنَ الْمَوْفِقِينَ ﴾ الذين يتبعونك في عبادتها ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ عظيم عن الحق ﴿ مُبِينٍ ﴾ أي بين في كونه ضلالاً، لا اشتباه فيه أصلاً، وحكمة كون بعض أقارب الرسل كافرين، هي تقرير أصل التوحيد، الهادم لقاعدة الوثنية، والرسل لا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً، ولو كان أقرب الناس إليهم، فكيف بغيرهم من البشر؟

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي مثل ذلك التبصير البديع، نُبِّصِرَ إبراهيم بملكنا الواسع ونعرفه به، وإنما عدل عن صيغة الماضي إلى صيغة المستقبل، استحضاراً لصورتها، حتى كأنها حاضرة ومشاهدة ﴿ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ربوبيته تعالى ومالكيته لهما، وكونهما بما فيهما مربوباً ومملوكاً له تعالى، والملكوت معناه الملك العظيم، والتاء فيه للمبالغة وقيل: ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ أي من زمرة الراسخين في الإيقان، البالغين درجة عين اليقين، من معرفة الله

تعالى، واللام متعلقة بمحذوف أي فعلنا ما فعلنا وأريناه تلك الآيات الباهرة، ليكون من الراسخين في اليقين، لا يخالجه أدنى شك أو ارتياب.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ جنَّ عليه: ستره فمعنى: ﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ ستره بظلامه، وهذه المادة بتصرفاتها تدل على الستر ﴿رَأَى الْكُوكَبَ﴾ جواب لَمَّا، والمراد بالكوكب فيما روي عن قتادة: أنه الزهرة ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وهذا منه عليه السلام على سبيل الفرض، وإرخاء العنان، مجارة مع أبيه وقومه، الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فإن المستدل على فساد قول، يحكيه ثم يكرِّه عليه بالإبطال، وهذا هو الحقُّ الحقيقيُّ بالقبول ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي غاب ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ المتغيرين من حال إلى حال، فإنهم بمعزل من استحقاق الربوبية قطعاً، أفل الشيء أفولاً: غاب.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أي مبتدأ في الطلوع، منتشر الضوء، قال الأزهري: مأخوذاً من البزغ وهو الشق، كأنه بنوره يشق الظلمة، وظاهر الآية أن هذه الرؤية، بعد غروب الكوكب ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وهو على منهاج الكلام السابق ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ كما أفل الكوكب ﴿قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ إلى جنبه الحق الذي لا محيد عنه ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ استعان بربه في درك الحق، فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه، إرشاداً لقومه وتنبهياً لهم على أن القمر أيضاً، لتغيير حاله لا يصلح للألوهية، وأن من اتخذها آلهاً فهو ضال، والتعريض بضلالهم هنا أصرح وأقوى من قوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ وفي هذه الجملة دليل على أن استدلاله عليه السلام ليس لنفسه، بل محاجةً لقومه، ولما ذكر هذه القصة قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ ولم يقل على نفسه.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وإنما لم يؤنث لصيانة الرب عن وصمة التأنيث، ولأن الشمس تأنيثها غير حقيقي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ تأكيد لما رآه من إظهار النصفة، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى، بيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر، وكون الشمس أكبر مما قبلها

مما لا خفاء فيه ﴿ فَلَمَّا أَفَلَّتْ ﴾ كما أفل ما قبلها ﴿ قَالَ ﴾ لقومه صادعاً بالحق بين ظهرانيهم ﴿ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي من إشراككم، وإنما احتج عليه السلام بالأفول دون البزوغ، مع أنه أيضاً انتقال من حالة إلى حالة، لأنه انتقال مع احتجاب، وأن دلالة الأفول على المقصود ظاهرة، يعرفها كل أحد، ثم لما تبرأ منها، توجه إلى موجدتها، الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال:

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ أَي أوجد وأنشأ ﴾ السَّمَوَاتِ ﴾ التي هذه الأجرام من أجزائها ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ التي تلك الأصنام من أجزائها ﴿ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، ولست من المشركين.. تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه<sup>(١)</sup>، والمراد من توجيه الوجه قصده سبحانه بالعبادة وحده.

﴿ وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْاَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ۞

(١) قال الحافظ ابن كثير: والحق أن إبراهيم عليه السلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة، وأشدهن إضاءة الشمس، ثم القمر، ثم الكوكب «الزهرة» فلما انتفت الألوهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع تبرأ منهم فقال ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمَهُ﴾ أي شرعوا في مغالته في أمر التوحيد، تارة بإيراد أدلة فاسدة، وأخرى بالتخويف والتهديد ﴿قَالَ﴾ منكرأ عليهم لما اجترؤوا عليه من محاجته بعد وضوح الحق ﴿أَتَحْجُونَ فِي اللَّهِ﴾ في وحدانيته سبحانه ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا﴾ في موضع الحال مؤكداً للإنكار، أي وقد هداني ربي وبصّرني بالحق بإقامة الدليل عليكم بوحدانيته، وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ جواب عما خوفوه به، من إصابة مكروه من جهة أصنامهم، كما قال لهود قومُه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾<sup>(١)</sup> وهذا التخويف كان على ترك عبادة الأصنام، وقيل: بل على الاستخفاف والاستهزاء بها ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي لا أخاف في وقت من الأوقات، إلا في وقت مشيئته تعالى شيئاً من إصابة مكروه بي، وذلك إنما هو من جهته تعالى، من غير دخل لآلهتكم فيه أصلاً ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء، ومنها أن يكون في علمه تعالى أن يحيق بي مكروه من قبلها ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أتعرضون عن التأمل في أن آلهتكم بمعزل عن القدرة، على شيء ما من النفع والضرر، فلا تتذكرون أنها غير قادرة على إضراري؟ وفي إيراد التذکر دون التفکر، إشارة إلى أن أمر آلهتهم مركز في العقول، لا يتوقف إلا على التذكير.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي وكيف أخاف آلهتكم المزعومة، التي أشركتموها مع الله في العبادة ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ أي ولا تخافون الله الجليل القادر، وهو حقيق بأن يخاف منه، لأنه إشارك بالمبدع الصانع، وتسوية للضعيف العاجز بالقادر؟ أي كيف أخاف أنا ما ليس في حيز الخوف أصلاً، وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخوفات، وهو إشارككم بالله الذي فطر السموات والأرض؟ وعبر عنه بقوله سبحانه: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ﴾ أي بإشارككم ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ على طريقة التهكم، مع

(١) سورة هود، آية: ٥٤.

الإيدان بأن الأمور الدينية لا يعول فيها إلا على الحجة المنزلة من عند الله تعالى ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾؟ أي أئنا أحق بالأمن؟ ونحن وقد عرفنا الله بالأدلة الساطعة، أم أنتم وقد أشركتم معه الأوثان، وكفرتهم بالواحد الديان؟ أئنا أحق بالأمن أنا أم أنتم؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم، فأخبروني بذلك.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ أي لم يخلطوا ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك كما يفعله المشركون، حيث يزعمون أنهم مؤمنون بالله، وأن عبادتهم لغيره من تتمات إيمانهم، لكونها لأجل التقريب والشفاعة.. روي أن هذه الآية لما نزلت على رسول الله ﷺ أشفق منها أصحاب النبي فقالوا: وأئنا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١)</sup> فقد ظنوا أن المراد من الظلم المعاصي، فقالوا: أئنا لم يظلم نفسه؟ فبين النبي ﷺ أن المراد من الظلم هنا: الشرك ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر، من الإيمان الخالص عن شائبة الشرك، لهم الأمن فقط ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ومن عداهم في ضلال.

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه ﴿حُجَّتْنَا ءَاتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أي أرشدناه إليها وعلمناه إياها ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي حجة على قومه ﴿زَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ أي رتباً عظيمة عالية، من العلم، والحكمة وما تستدعيه المصلحة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في كل ما فعل من رفع وخفض ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال من يرفعه.

(١) الحديث في الصحيحين، فقد أخرجه البخاري في الإيمان ٨٢/١ ومسلم رقم ١٢٤ في الإيمان أيضاً، وفي رواية أخرى: ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾؟!.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ  
 وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ  
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾  
 وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ  
 آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ  
 هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا  
 يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِآءُ  
 فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ  
 أَقْدَارُهُمْ فَلَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ أي كلا منهما أرشدناه إلى طريق السعادة، لا أحدهما دون الآخر ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل إبراهيم، وعدَّ هداه نعمة، لأن شرف الوالد سارٍ إلى الولد ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ الضمير لإبراهيم عليه السلام، لأن مساق النظم الكريم، لبيان شؤونه الجليلة، من إيتاء الحجة، ورفع الدرجات، وهبة الأولاد الأنبياء، وكل ذلك لإلزام من ينتمي إلى ملته، من المشركين واليهود، بأن إبراهيم كان مؤمناً موحداً، لا كما يدعون أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ﴿ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ إنما بدأ بذكرهما، لأنهما جمعاً بين النبوة والملك، وسليمان هو ابن داود ﴿ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما يفهم من النظم الكريم من جزاء إبراهيم ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ جزاء مثل ذلك الجزاء، والمراد بالمحسنين الجنس، ومطلق المشابهة في مقابلة الإحسان بالإحسان من غير بخس، لا المماثلة من كل وجه.

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ وفيه دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنات ﴿ وَإِلْيَاسَ ﴾ هو من أسباط هارون ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من

أولئك المذكورين ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ والجملة اعتراض جيء به للثناء عليهم.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا﴾ إسماعيل هو ابن إبراهيم، ولوط هو ابن أخ إبراهيم ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا﴾ بالنبوة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي على عالمي عصرهم، وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق، وقد ذكر الله تعالى أربعة عشر نبياً، لم يرتبهم على حسب تاريخهم، لأنه تعالى أنزل كتابه هدى وموعظة، لا لسرد أخبار التاريخ.

﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ﴾ آدم، وشيث، ونوح، وهود، وصالح ﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم الجماعات الكثيرين، وإن لم يكونوا جميعاً أنبياء، فهم مؤمنون مهتدون. ﴿وَأَجْنِبَيْتُهُمْ﴾ أي اصطفيناهم ﴿وَهَدَيْتُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لبيان ما هدوا إليه.

﴿ذَلِكَ﴾ الهدى إلى الطريق المستقيم ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الإضافة للشراف ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ هدايته ﴿مِنَ عِبَادِهِ﴾ وهم المستعدون لذلك، وتفيد الآية على أنه تعالى متفضل بالهداية عليهم ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ أي أولئك المذكورون مع فضلهم وتقدمهم ﴿لَحِطَ عَنْهُمْ﴾ لبطل وسقط عنهم مع علو شأنهم ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال المرضية، فكيف بمن عداهم؟.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من الأنبياء، باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الجليلة ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي فصل الأمر بين الناس بالحق، أو الحكمة وهي معرفة حقائق الأشياء ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ إنما ذكر الأعم، لأن بعض من دخل في آبائهم وذرياتهم، ليسوا برسول ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ أي كفار قريش، فإنهم بكفرهم برسول الله ﷺ وما أنزل عليه كفرون بجميع الرسل ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا﴾ أي أمرنا بمراعاتها، ووقفنا للإيمان بها، والقيام بحقوقها ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ في وقت من الأوقات، بل مستمررون على الإيمان بها،

وفي الآية دليل على أنه عز وجل ينصر رسوله ﷺ، ويقوي دينه، وقد حقق له ذلك.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من الأنبياء ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إلى الحق، والنهج المستقيم ﴿فِيهِدْتُهُمْ أَقْتِدَةً﴾ المراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله تعالى، وتوحيده، وأصول الدين والافتداء الأمور به ليس إلا في الأخلاق الفاضلة، كالحلم، والصبر، والزهد، والشكر، والتضرع، ونحوها، وأنه ﷺ قد امتثل وأتى بجميع ذلك، فاجتمع فيه من خصال الكمال، ما كان متفرقاً فيهم، وفي أمره ﷺ بالافتداء بهداهم، دون الافتداء بهم، ما لا يخفى من الإشارة إلى علو مقامه!! ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ أي لا أطلب منكم ﴿عَلَيْتِهِ﴾ أي على التبليغ، أو القرآن، فإن مساق الكلام يدل عليهما، وإن لم يجر ذكرهما ﴿أَجْرًا﴾ أي جُعلاً من جهتكم، كما لم يسأل من قبلي من النبيين، وهذا من جملة ما أمر بالافتداء بهداهم، لأن عدم أخذ الأجر في مقابلة الإحسان، من مكارم الأخلاق ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي تذكير وعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ كافة من جهته سبحانه فلا يختص بقوم دون قوم وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى جميع الخلق من الإنس والجن.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ .

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ شَأْنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّهُ نِعْمَةٌ جَلِيلَةٌ عَلَى كَافَّةِ الْأُمَمِ، عَقَّبَ ذَلِكَ بَيَانِ كُفْرِهِمْ بِهِ، عَلَى وَجْهِ سَرَىٰ ذَلِكَ إِلَى الْكُفْرِ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْمَعْنَى: مَا عَرَفُوا اللَّهَ تَعَالَى ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أَي حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ: مَا عَظَمُوا اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ تَعْظِيمِهِ، وَمَا قَالَهُ الْأَخْفَشُ أَوْفَقَ بِالْمَقَامِ، أَي مَا عَرَفُوهُ سُبْحَانَهُ، فِي اللَّطْفِ بِعِبَادِهِ، وَالرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَرَاعُوا حُقُوقَهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ، بَلْ أَخْلَوْا إِخْلَالًا عَظِيمًا ﴿إِذْ قَالُوا﴾ مَنكِرِينَ لِبَعْثَةِ الرَّسُولِ، وَإِنزَالِ الْكُتُبِ ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّهُمْ مُشْرِكُوا قَرِيشَ، وَالْجَمْهُورُ عَلَى أَنَّهُمْ الْيَهُودُ، وَمَرَادُهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْمِبَالِغَةُ فِي إِنكَارِ إِنزَالِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، بِدَلِيلِ نَقْضِ كَلَامِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ أَي قُلْ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقَةِ التَّبْكِيكِ وَالتَّقْرِيعِ عَلَى سُوءِ جَهْلِهِمْ.

رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ أَنَّ مَالِكَ بْنَ الصَّيْفِ - مِنْ أَحْبَابِ الْيَهُودِ - قَالَ ﷺ لَهُ: أُنشِدْكَ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَجِدُ فِيهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبْغِضُ الْحَبْرَ السَّمِينِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: فَأَنْتَ الْحَبْرُ السَّمِينِ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ، فَغَضِبَ فَقَالَ: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ الْآيَةُ، ثُمَّ إِنَّ وَصَفَ الْكِتَابِ، بِالْوَصُولِ إِلَيْهِمْ، لَزِيَادَةِ التَّقْرِيرِ، وَكَذَا تَقْيِيدِهِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ فَإِنَّ كَوْنَهُ بَيِّنًا بِنَفْسِهِ، وَمَبِينًا لِغَيْرِهِ، مِمَّا يُوَكِّدُ الْإِلْزَامَ ﴿لِلنَّاسِ﴾ أَي هَدَىٰ كَائِنًا لِلنَّاسِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا، مَجْرَدُ الْإِلْزَامِ بِالاعْتِرَافِ فَقَطْ، بَلْ بِإِنزَالِ الْقُرْآنِ أَيْضًا، فَإِنَّ الاعْتِرَافَ بِإِنزَالِهَا مُسْتَلْزَمٌ لِإِنزَالِهِ، لِمَا فِيهَا مِنَ الشَّوَاهِدِ، وَقَدْ نَعَىٰ عَلَيْهِمْ مَا فَعَلَ بِهَا مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ، حَيْثُ قِيلَ: ﴿تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا﴾ أَي تَضَعُونَهُ فِي قُرَاطِيسٍ مَقْطَعَةٍ، وَوَرَقَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَفِيهِ زِيَادَةُ تَوْبِيخٍ لَهُمْ بِسُوءِ صَنِيعِهِمْ، كَأَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ مِنْ جِنْسِ الْكِتَابِ، وَنَزَلُوهُ مِنْزَلَةَ الْقُرَاطِيسِ الْخَالِيَةِ عَنِ الْكِتَابَةِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ وَضْعَهُمْ لَهُ فِي قُرَاطِيسٍ، إِذْ كُلُّ كِتَابٍ لَا بَدَّ أَنْ يُوَدَعَ فِي الْقُرَاطِيسِ، بَلِ الْمُرَادُ التَّوْبِيخُ عَلَى الْجَعْلِ فِي قُرَاطِيسٍ مُوصُوفَةٌ بِقَوْلِهِ

سبحانه: ﴿تُبَدُّونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي كثيراً منها، والمراد من الكثير نعوت النبي ﷺ وسائر ما كتموه من الأحكام، كرجم الزاني المحصن، وهذا خطاب لليهود بلا مرية، وكانوا يفعلون ذلك مع عوامهم متواطئين عليه ﴿وَعَلَّمْتُمْ﴾ يا أهل الكتاب بالكتاب ﴿مَا لَمْ تَعَلَّمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ من أمور دينكم وديناكم ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأن يجيب عنهم، إشعاراً بتعيين الجواب، بحيث لا محيد عنه، وإيداناً بأنهم أفرحوا ولم يقدرُوا على التكلم ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ﴾ دعهم ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه، ولا عليك بعد إزام الحجة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ولفظة ﴿الله﴾ جملة حُذِفَ أحد جزئها، أي الله أنزله.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ هذا تحقيقٌ لنزول القرآن على محمد ﷺ وتكذيبٌ لهم في كلمتهم الشنيعة ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع، لاشتماله على منافع الدارين، وعلوم الأولين والآخرين ﴿مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الكتب التي قبله، وتصديقه للكل، في إثبات التوحيد، ونفي الشرك، وأصول الشرائع التي لا تُنسخ ﴿وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أي لإندارك أهل مكة، سُمِّيت بذلك لأنها قبة أهل البلاد، ومَحَجُّهُمْ، وأعظم القرى شأناً وهم يجتمعون عندها كاجتماع الأولاد عند الأم، ويعظمونها تعظيم الأم ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أهل المدر والوبر، في المشارق والمغرب، لعموم بعثته ﷺ لجميع الناس ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وبما فيها من الثواب والعقاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن الكريم، فإنَّ من صدَّق بالآخرة، خاف العاقبة، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر، حتى يؤمن بالنبي والكتاب، ويحافظ على الطاعة، وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين، وعلمُ الإيمان، وأما المنكرون للبعث والجزاء، فلا يشعرون بشدة الحاجة إلى هداية القرآن، ومشركو مكة أعرضوا عن القرآن لأنهم لا يعتقدون البعث ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يؤدونها في أوقاتها، بأركانها وشرائطها وآدابها، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها من العبادات.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾  
 وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ  
 وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ  
 الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾  
 وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمَا مَا خَوْلْتُمْكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ  
 وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ  
 وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي لا أحد أظلم منه (١)، كالذين  
 قالوا: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ من جهته تعالى ﴿ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ  
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أي أنا قادر على مثل ذلك، كالذين قالوا: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ  
 هَذَا ﴾ وقد دخل في حكم هذه الآية، كلُّ من افتري على الله كذباً، في  
 ذلك الزمان وبعده، لأن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم ﴿ وَلَوْ تَرَى  
 إِذِ الظَّالِمُونَ ﴾ أي ولو ترى الظالمين إذ هم ﴿ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أي  
 شدائده، من غَمَره إذا غشيه، والغمرَةُ: الشدة، ومنه غمرات الموت،  
 وتقبيد الرؤية بهذا الوقت ليفيد رؤيتهم على حال فظيعة عند كل ناظر،  
 وجواب الشرط محذوف، أي لرأيت أمراً فظيلاً هائلاً ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ وهم  
 أعوان ملك الموت ﴿ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ لقبض أرواحهم، كالمتقاضى الملح،  
 يبسط يده إلى من عليه الحق، ويُعْتَف عليه في المطالبة، من غير إهمال،  
 أو باسطو أيديهم بالعذاب، قائلين ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ﴾ أي أرواحكم من

(١) الاستفهام إنكاري معناه النفي، أي لا أحد أظلم منه على معنى: إنه أظلم من كل  
 ظالم، وزيادة قوله: ﴿ كَذِبًا ﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك، للإيدان بأن ما قالوه  
 مع أنه افتراء هو كذب في نفسه، فقد جمعوا بين الكذب، وجريمة الافتراء على الله .

أجسادكم، أو خلصوا أنفسكم من العذاب ﴿الْيَوْمَ﴾ أي وقت الإمامة أو الوقت الممتد إلى ما لا نهاية له ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي العذاب المتضمن للشدة والإهانة، وحاصل المعنى: ولو ترى أيها المخاطب ما يحلُّ بالظالمين عند الموت، وما بعده، لرأيت أمراً فظيلاً ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ مفترين ﴿عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من ادعاء الوحي، ودعوى النبوة كذباً ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تتأملون فيها، ولا تؤمنون بها.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء ﴿فُرْدَى﴾ أي منفردين عن الأعوان والأوثان التي زعمتم أنها شفعاؤكم، وعن الأولاد والأموال ﴿كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي على الهيئة التي وُلدتم عليها، عُرَاةً، وحُفَاةً، كما روي عن عائشة أنها قرأت هذه الآية، قالت يا رسول الله واسوأته، النساء والرجال سيحشرون جميعاً، ينظر بعضهم إلى سواة بعض؟ فقال ﷺ: «لكل امرئٍ منهم يومئذ شأن يغنيه»<sup>(١)</sup> ﴿وَرَكْمٌ مَّا حَوَّلْنَاكُمْ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا، من الأموال، والأولاد، والخدم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي في الدنيا، ولم تحملوا نقيراً وهذا يدل على أن ما يكتسبه الإنسان، ولم يصرفه في الخيرات، فصفته هذه التي ذكرها، أمّا إذا صرفها إليها، فما تركها وراء ظهره، بل قدّمها تلقاء وجهه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي شركاء الله في ربوبيته واستحقاق عبادتكم لها، تعالى الله عن ذلك، وبخ الله تعالى المشركين بذلك، ثم يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي وقع التقطع بينكم، وأصله لقد تقطع ما بينكم ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ ضاع وبطل ﴿مَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاؤكم، أو أن لا بعث ولا جزاء.

(١) أخرجه الحاكم وصححه، ورواه الترمذي في التفسير ٤٠٣/٥ بلفظ: «تحشرون حُفَاةً، عُرَاةً، غُرُلًا - أي غير مختونين - فقالت امرأةٌ أَيْبِصِرُ أو يرى بعضنا عورةً بعض؟ قال: يا فلانة ﴿لكل امرئٍ منهم يومئذ شأنٌ يغنيه﴾» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَآنَى تُؤَفَّكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ شروع في تقرير بعض بدائع الله تعالى، الدالة على كمال علمه وقدرته، إثر تقرير أدلة التوحيد، والفلق: الشق أي شاق الحب بالنبات، والنوى بالشجر، ﴿ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ أي مخرج ما ينمو من الحيوان والنبات، مما لا ينمو من النطفة والحب ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ ﴾ كالنطفة والحب ﴿ مِنَ الْحَى ﴾ كالحيوان والنبات، أو المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ولما كان الحي أشرف من الميت، وجب الاعتناء بإخراج الحي أكثر من الاعتناء بإخراج الميت، فلذا وقع التعبير عن الأول بصيغة الفعل ﴿ يُخْرِجُ ﴾ وعن الثاني بصيغة الاسم ﴿ وَمُخْرِجٌ ﴾ تنبيهاً على أن الاعتناء بإيجاد الحي أكثر وأكمل، من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ القادر العظيم الشأن هو ﴿ اللَّهُ ﴾ المستحق للعبادة وحده ﴿ فَآنَى تُؤَفَّكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته، وتشركون به من لا يقدر على شيء أصلاً؟ .

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ الإصباح في الأصل مصدر أصبح، إذا دخل في الصباح، سُمِّيَ به الصبحُ والصبحُ مثله وهو أول النهار، فلقه عن بياض النهار، أي فالق ظلمة الإصباح بالإصباح، وذلك لأن الأفق مملوء من الظلمة، فشقَّ سبحانه ذلك بالنور الذي ظهر في الجانب الشرقي ﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أي يسكن إليه من يتعب بالنهار، ويستأنس به، لاسترواحه فيه، وكلُّ ما يسكن إليه الرجل ويطمئن به، من زوج أو حبيب يقال له: سكن، والمعنى سكن فيه كل طير ودابة أي: جعل الليل مسكوناً فيه، أخذاً له من السكون ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ معطوفان على الليل أي مجعولان ﴿ حُسْبَانًا ﴾ على أدوار مختلفة، تُحسب بهما الأوقات التي نيظت بها العبادات، والمعاملات، والحُسبانُ بالضم مصدر حسبت، والمصدر حساباً

بالكسر، وحُسباناً بالضم، أي أحصيت عدداً ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره في هذه الآية ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الغالب القاهر، الذي لا يتعاصاه شيء من الأشياء، ومبالغ في العلم بجميع المعلومات، التي من جملتها المصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ﴾ أي أنشأ لأجلكم النجوم ﴿لِيَهْتَدُوا بِهَا﴾ أي جعلها كائنة لاهتدائكم في أسفاركم، عند دخولكم المفاوز أو البحار، إذا ضللتكم وتحيرتكم فيه، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي في ظلمات الليل، في البر والبحر، ذكر تعالى هنا بعض منافعها، وهو الاهتداء إلى البلدان في الأسفار، ومن منافعها يستدلون بالنجوم على القبلة، ومنها أنها زينة السماء، ولا بأس في تعلم علم النجوم ومعرفة البروج والمنازل، ونحو ذلك، مما يتوصل به إلى مصلحة دينية، قال العلامة ابن حجر: والمنهي عنه من علم النجوم، ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في المستقبل، يزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب، فمن ادعى علمه بذلك فهو فاسق، فأما الإخبار عما يُدرك بطريق المشاهدة من علم النجوم، الذي يُعلم به الزوال، وجهة القبلة، وكم مضى، وكم بقي من الوقت، فإنه لا إثم فيه، بل هو فرضٌ كفاية ﴿فَدَفَّصْنَا الْأَيَاتِ﴾ أي بيئاً الآيات التكوينية، والحجج الدالة على شؤونه تعالى، فصلاً، فصلاً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي معاني الآيات المذكورة، ويتفكرون في عظمة، الخالق جلّ وعلا، وتخصيص التفصيل بهم، لأنهم المنتفعون به.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ﴾ تذكير لنعمة أخرى، فإن رجوع الكثرة إلى أصل واحد، أقرب إلى التواؤم والتعاطف، وفيه أيضاً دلالة على عظيم قدرته سبحانه ﴿ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ هي آدم عليه السلام ﴿ فَسْتَقَرُّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أي فلکم استقراراً في الأضلاب، واستيداع في الأرحام، وقيل: المستودع: القبر، والمستقر: إما الجنة أو النار، وقال مجاهد: المستقر على الأرض، قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ والمستودع القبر ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ ذكر تعالى مع النجوم. ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ لأن أمرها ظاهر، وذكر مع تخليق آدم ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ لأن إنشاء بني آدم من نفس واحدة دقيق يحتاج إلى استعمال فطنة، وتدقيق نظر<sup>(١)</sup>.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ تذكير لنعمة أخرى، منبئة عن كمال قدرته عز وجل ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ أي بسبب الماء ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي أخرجنا بهذا الماء من جميع أنواع النبات ما هو غذاء للبشر ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ خضِر اللون، خَضِرًا من باب تعب فهو خضِر وأكثر ما يستعمل الخضِر، فيما تكون خضرته خلقية، والخضِر بمعنى الأخضر، والمعنى: فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له، شيئاً غضياً أخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿ تُخْرِجُ مِنْهُ ﴾ أي نُخرج من ذلك الخَضِر ﴿ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ أي بعضه فوق بعض، وهو السنبل المنتظم للحبوب، متراكبة على هيئة مخصوصة، مثل سنبل القمح، والشعير، والأرز ونحوها،

(١) في القرآن أسرار دقيقة، لا يفتن لها الإنسان إلا بإمعان النظر، وهذه ظاهرة من ظواهر الإعجاز، فقد عبّر تعالى عن الأمور التي تحتاج إلى تفكير وتبصر بقوله: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ إشارة إلى أن أطوار الخلق في الإنسان، وما احتوى عليه من العجائب، أمر خفيّ تتحير فيه الألباب، فلذلك ختمت الآية بقوله: ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ أي يفهمون ويدركون الأسرار والدقائق، بخلاف النجوم فإن أمرها ظاهر مشاهد، لا تحتاج إلى كثير عناء، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فتدبر دقائق أسرار القرآن!!

وتقديم الزرع على الأشجار، لأن حاجة الناس إليه أكثر ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ النخل يستعمل في الواحد والجمع ﴿مِنَ طَلْعِهَا﴾ الطلع شيء يخرج من النخل كأنه عُبَارٌ، والَطَّلَعُ أول ما يبدو من ثمر النخل، فإذا شق كيزانه سمي عِدْقًا وهو القِنُوءُ ﴿قِنْوَانٌ﴾ وهو جمع قنو وهو عنقود النخلة، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب ﴿دَانِيَةٌ﴾ سهلة للمجتنبي، قريبة من القاطف، وقيل: المراد دانية من الأرض بكثرة ثمرها وثقل حملها ﴿وَجَنَدٍ مِّنْ أَعْنَبٍ﴾ أي وأخرجنا به جنات من أعناب ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ منصوبان على الاختصاص، وتخصيصهما بالذكر لعزة هذين الصنفين عندهم، ﴿مُشْتَبِهًا وَعَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ يقال اشتبه الشيئان وتشابها، نحو استويا وتساويا، أي مختلفاً في الطعم، والقدر، واللون، وغير ذلك من الأوصاف، الدالة على كمال قدرة صانعها، قال قتادة: مشتبهاً ورقه، مختلفاً ثمره ﴿أَنْظُرُوا﴾ نظر اعتبار واستبصار ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾ أي ثمر كل واحد من ذلك ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ أي إذا أخرج ثمره، كيف يشمر ضئيلاً، لا يكاد ينتفع به ﴿وَيَعْوِءُ﴾ أي نضجه وإدراكه كيف يصير إلى كماله اللائق به، ويكون شيئاً جامعاً لمنافع جمّة؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما أمر بالنظر إليه ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات عظيمة، دالة على وجود القادر الحكيم ووحدانيته، فإن حدوث الأجناس المختلفة من أصل واحد، وانتقالها من حال إلى حال، بشكل بديع، تحار في فهمه الأبواب، لا يكون إلا بإحداث عالم، قادر، يعلم تفصيلها، ويرجع ما تقتضيه حكمته، ولا يقدر على ذلك أحد، إلا الله عزَّ وجل، ولذلك عقب الله بتوبيخ من أشرك فقال سبحانه:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ  
سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ .

فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ﴾ الذي شأنه ما فُصِّل ﴿شُرَكَاءَ﴾ في الألوهية ﴿الْجِنَّ﴾ أي الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ حال

من فاعل جعلوا، والمعنى: وقد علموا أن الله تعالى خالقهم، دون الجن، وليس من يخلق كمن لا يخلق؟ ﴿وَحَرَّفُوا لَهُ﴾ افتعلوا وافتروا له، قال الفراء: يقال خَلَقَ الْإِفْكَ، واختلقه، وَحَرَّفَهُ بِمَعْنَى، وقال الراغب: أصلُ الخرق قطعُ الشيء على سبيل الفساد، من غير تفكير ولا تدبر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهو ضدُّ الخلق، فإنه فعل الشيء بتقدير ورفق، أي وزوروا له ونسبوا إليه ﴿بَيْنَ وَبَيْنَ﴾ فقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله، والله تعالى منزّه عما قاله السفهاء ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بغير علم بمرتبة ما قالوه، وأنه من الشناعة بحيث لا يُقادر قدره ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي تنزهه وتقدّس عما قالوه، من أنّ له شريكاً أو ولداً، وهذه غاية السفاهة والجهالة، فكيف يجعلونهم شركاء وهو المنزه عن المثل والنظير؟

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي موجدهما بغير آله، ولا مادة، ولا زمان، ولا مكان، ومعنى ذلك: أن إبداعه لهما لا نظير له، لأنهما أعظم المخلوقات الظاهرة ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾؟ أي من أين يكون أو كيف يكون له ولد؟ لأن الولد جزء الوالد، والله تعالى منزّه عن الجزئية والبعضية بالكلية، فكيف يمكن أن يكون له ولد؟ ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ أي كيف يكون له ولد، وليس له زوجة؟ والولد لا يكون إلا من زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه<sup>(١)</sup> ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فلا تخفى عليه خافية.

(١) الغرض من الآية الرّدُّ على من نسب لله الولد، من وجهين: أحدهما: أن الولد لا يكون إلا من جنس والده، والله تعالى متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعها.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ  
 وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ  
 وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ .

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ الخطاب للمشركين، والإشارة إلى المنعوت بجلالئ  
 النعوت ﴿رَبُّكُمْ﴾ مالك أمركم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أخبارٌ  
 أربعة مترادفة، أي ذلك الموصوف، هو الله المستحق للعبادة خاصة، مالك  
 أمركم، لا شريك له أصلاً، وخالق كل شيء مما كان وما سيكون  
 ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة، أي فاعبدوه،  
 ولا تعبدوا من دونه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي وهو مع تلك  
 الصفات، متولي أموركم، فكلوها إليه، وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح  
 مآربكم.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي لا تحيط به تعالى الأبصار، جمع بصر،  
 وهي حاسة النظر، والإدراك: اللحاق والإحاطة، والآية نفت الإحاطة ولم  
 تنف الرؤية، فلم يقل تعالى: لا تراه الأبصار، وإنما قال ﴿لَا تُدْرِكُهُ  
 الْأَبْصَارُ﴾ أي لا تحيط به إحاطة معرفة وشمول كما قال سبحانه: ﴿وَلَا  
 يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ واستدلال المعتزلة بالآية على نفي رؤية الله في الآخرة  
 وهو خطأ كبير، لمعارضتها للنصوص الثابتة الصريحة في رؤية المؤمنين  
 لربهم في الجنة. قالوا: إن رؤيته تعالى مستحيلة، ومذهب أهل السنة أن  
 المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، واحتجوا بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة،  
 قال الله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾<sup>(١)</sup> واستدلوا بما رواه

= الثاني: أن الله خلق السموات والأرض، ومن كان بهذه العظمة، فهو غني عن الولد،  
 وعن كل شيء، وهذا غاية الوضوح والعلاء.

(١) سورة القيامة، آية: ٢٢ - ٢٣.

الشيخان عن جرير قال: كنا جلوساً ليلة مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر وكان بدمراً فقال: «إنكم سترون ربكم، كما ترون القمر ليلة البدر..» الحديث. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي لا يحيط بصر أحدٍ بالله تعالى، وإليه ذهب الكثير من أئمة اللغة، يقال: رأيتُه وما أدركه بصري، أي ما أحاط به من جوانبه ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي يراها على وجه الإحاطة والشمول، إذ لا تخفى عليه خافية، وخصَّ إدراك الأبصار، مع أنه تعالى يدرك كل شيء، لرعاية المقابلة وهو نوع من البلاغة لطيف ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أي اللطيف بعباده، الخبير بشؤونهم ومصالحهم فيدرك ما لا تدركه الأبصار.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ﴿١٠٥﴾ وكذلك نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسَتْ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ .

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبدن، سُميت بصائر لأنها تجلي الحق وتبصره، وهي نورٌ في القلب تستبصر به النفس، كما أن البصر نورٌ تبصر به العين، والمراد بها ههنا الآيات القرآنية، أي جاءكم القرآن بالآيات البينات، والحجج الواضحات، التي تبصرون بها الهدى من الضلال، فهو كالبصائر للقلوب ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحق بتلك البصائر، وآمن وعمل صالحاً ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فلنفسه أبصر، ونفعه مخصوص بها ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ أي ومن لم يبصر الحق، بعدما ظهر له بتلك البصائر وضل عنه ﴿فَعَلَيْهَا﴾ أي وباله وضرره عليها، لا يضُرُّ غيره، وإنما عبر عنه بالعمى تقبيحاً وتنفيراً عنه، وعمى البصائر شرٌّ من عمى الأبصار ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وإنما أنا منذر، والله تعالى هو الذي يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أي مثل ذلك التصريف نصرف الآيات، أي نوضحها ونبينها ليعتبروا ويتعظوا ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ أي قرأت وتعلمت، وليس هذا بوحى منزل، وقد قالوا هذا إفكاً وزوراً، وزعموا أنه ﷺ تعلم من غلام رومي، كان يصنع السيوف بمكة، أو تعلم من اليهود هذه الأخبار ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ ﴾ أي ولنبين هذا القرآن ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الحق من الباطل، فإنهم هم المنتفعون به.

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَتَوَشَّأَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ .

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي دم على ما أنت عليه من الشرائع والأحكام، التي عمدتها التوحيد، ولا تلتفت لأفعالهم وأقوالهم، والمقصود تقوية قلبه، وإزالة حزنه ﷺ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ولا تحتفل بأهوائهم، ولا تلتفت إلى أذاهم.

﴿ وَتَوَشَّأَ اللَّهُ ﴾ عدم إشراكهم ﴿ مَا أَشْرَكُوا ﴾ وهذا دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر، لعدم صرف اختياره نحو الإيمان، وإصراره على الكفر، ولو اختاروا الإيمان لهداهم إليه ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي رقيباً مهيمناً تحفظ عليهم أعمالهم ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي من جهتهم تقوم بأمرهم، وتدبير مصالحهم، إنما أنت مبلغ.

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ .

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي لا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح، كأن تقولوا: تبا لكم ولآلهتكم وقيل: إن سبَّ الآلهة، سبُّ لهم، كما يقال: ضربت الدابة صفحاً لراكبها ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا ﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل، بأن يقولوا لكم مثل قولكم لهم ﴿ بغيرِ علمٍ ﴾ أي لعدم معرفتهم بعظمة الله وجلاله. أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: قالوا يا محمد لتنتهين عن سبِّ آلهتنا أو لنهجون ربك!! فنهاهم الله تعالى أن يسبوا أوثانهم، وظاهر الآية وإن كان نهياً عن سبِّ الأصنام، فالغرض النهي عن السبِّ الذي يكون وسيلة إلى سبِّ الله عزَّ وجلَّ، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية وجب تركها، فإن ما يؤدي إلى الشرِّ شرٌّ، والسبُّ عن جهل يقع كثيراً من المختلفين في الدين، يسبُّ يهودي نبيَّ نصراني، والنصراني يسبُّ نبي اليهودي، ويسب شيعي سنياً وينتقص أبا بكر، فيسب السنيَّ علياً، وهذا كله من الجهل والغضب والغيط ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التزيين القوي ﴿ زِينًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ﴾ من الخير والشر، بإحداث ما يمكنهم منه، قال ابن عباس: زينا لأهل الطاعة الطاعة، ولأهل الكفر الكفر ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ مالك أمرهم ﴿ مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي رجوعهم ومصيرهم، بالبعث بعد الموت ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي فيجازيهم على أعمالهم، وهو وعيد بالجزاء، كقول الرجل لمن يتوعده: سأخبرك بما فعلت، وفيه نكتة خفية، مبنية على حكمة، وهي أن كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض، فإنما يظهر مخالفاً لصورته الحقيقية، فإن المعاصي سموم قاتلة، قد برزت في الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة، كالمرأة الفاتنة الحسناء، ستظهر في الآخرة بصورة منكرة قبيحة، عند ذلك يعرفون حقيقة أعمالهم المنكرة.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْسَدَتَهُمْ وَابْصَرَ لَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

﴿وَأَقْسَمُوا﴾ أي المشركون ﴿يَاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الجهد بفتح الجيم وضمها: الطاقة والمشقة، يُقال: جهد الرجل في كذا أي جدَّ فيه وبالغ، والمعنى هنا أنهم حلفوا، واجتهدوا في الحلف، أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم التي طلبوها، والداعي إلى هذا القسم، التحكم على الرسول ﷺ في طلب الآيات، واستحقار ما رأوا منها، فاقترحوا غيرها، وحالهم هو المكابرة والعناد، والتمادي في العتوّ والفساد ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا﴾ والمراد من الإيمان بها: التصديق بالنبي ﷺ ﴿قُلْ إِنَّمَا آلَايَتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي أمر هذه المعجزات عند الله وحده، وفي حكمه خاصة، يتصرف فيها حسب مشيئته، لا قدرة لي على الإتيان بها، وهذا سدُّ لباب الاقتراح من المشركين ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كلام مستأنف لبيان الحكمة الداعية لعدم مجيء الآيات، خوِّط به المسلمون لأنهم كانوا راغبين في نزولها، طمعاً في إسلامهم، أي شيء يعلمكم أيها المسلمون حالهم، وما سيكون عند مجيء الآيات، فلعلها إذا جاءت لا يؤمنون بها، فما لكم تطلبون مجيئها؟! .

﴿وَقَلْبٌ أَفْئَدَتُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ﴾ أي وما يشعركم أنا نقلُّ أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يدركونه، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه، لإعراضهم بالكلية عن النظر في الآيات الكونية ﴿كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَرٍ﴾ أي كما كفروا بالقرآن أول مرة، واستمروا على الكفر والضلال ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي نخليهم وشأنهم، بعدما علّم فساد استعدادهم، وفرط نبوهم عن الحق، وندعهم في طغيانهم متحيرين، لا نهديهم هداية المؤمنين الصادقين!! .

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَنَّا إِلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ .

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي ولو أنزلنا إليهم الملائكة كما سألوه بقولهم: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾ فأوهم بأعينهم، وسمعوا شهادتهم لك بالرسالة بأذانهم، ﴿وَكَلَّمَهُمْ الْمَوْقِنَ﴾ بأن أحييناهم، وشهدوا بحقية الإيمان، وشهدوا بصدق محمد عليه السلام ﴿وَحَشَرْنَا﴾ أي جمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ أي لو أحضرنا لديهم كل شيء عياناً ومشاهدة ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي ما صح لهم الإيمان، لتماديهم في العصيان ولا ينظرون في شيء من الآيات، نظر استدلال ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ما ذكر من الأمور الموجبة للإيمان، في حال من الأحوال، إلا في حال مشيئته تعالى لإيمانهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾<sup>(١)</sup> والآية بيان لاستحالة وقوع إيمانهم، كأنه قيل: ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، وهيئات ذلك، وحالهم حالهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفئِدَتَهُمْ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي ولكن أكثر المسلمين، يجهلون أنهم لا يؤمنون، فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم، أو ولكن أكثر المشركين يجهلون ذلك.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٦﴾  
وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ كلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يشاهده من عداوة قريش له، ببيان أن ذلك ليس مختصاً به، بل

(١) سورة السجدة، آية: ١٣.

هو أمر ابتلي به كلُّ من سبقه من الأنبياء الكرام، لأن القدر والمنزلة، إنما تظهر بالعدو والأضداد، ألا ترى أن إبراهيم كان خليلاً، سُلِّط عليه نمrod، وموسى كان كليماً سُلِّط عليه فرعون، ونبينا ﷺ كان حبيبا سُلِّط عليه أبو جهل وكفار قريش، أي وجعلنا لكل نبي عدواً، فعلوا بهم ما فعل بك قومك، فاصبر كما صبروا ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ أي مردة الفريقين من شياطين الإنس وشياطين الجن، ومعنى هذا الجعل أن سنة الله في الخلق مضت، بأن يكون الشرير المتمرد، العاتي عن الحق، يكون عدواً للدعاة من الأنبياء عليهم السلام وورثتهم ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي يلقي ويوسوس بعض كلِّ من الفريقين، إلى البعض الآخر، قال مالك بن دينار: إِنَّ شَيْطَانَ الْإِنْسِ أَشَدُّ مِنْ شَيْطَانِ الْجِنِّ، لأنني إذا تعوذت بالله تعالى، ذهب شيطان الجن عني، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً ﴿زُحْرَفَ الْقَوْلِ﴾ أي المموه منه، المزيّن ظاهره الباطل، من زخرفه إذا زينه ﴿غُرُوراً﴾ مفعول له أي ليغرؤهم أو مصدر لفعل مقرّر، أي يغرونهم غروراً والتغريّر بالزخرفة قد ارتقى عند شياطين هذا الزمان، ولا سيما شياطين السياسة، ارتقاءً عجيباً، فإنهم يخدعون الأحزاب، والأمم، والشعوب، فيصوّرون الاستعباد حرية، والشقاوة سعادة، والشيعوية عدالة، بتغيير الأسماء، وتزيين أقبح المنكرات، نعوذ بالله تعالى من شرورهم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم، ولكن هناك حكمة الابتلاء ﴿فَذَرَّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من مكائد، فإن الله ناصرك عليهم وإنما قال هنا ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ وفيما يأتي ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ فغاير بين الاسمين، فهذه الآية من عداوتهم له ﷺ، التي لو شاء منهم عنها، ويقتضي ذكره جل شأنه بهذا العنوان، إشارة إلى أنه تعالى مربيه، وهو في كنف حمايته، وأما الآية الأخرى - ١٣٧ - فذكر قبلها إشراكهم فناسب ذكره عز اسمه بعنوان الألوهية، التي تقتضي عدم الإشراك،

فكأنه قيل ههنا إذا كان ما فعلوه من عداوتك من فنون المفساد، فاتركهم وما يفترونه من أنواع المكائد، ولا تبال بهم، فإن لهم في ذلك عقوبات شديدة، ولك عواقب حميدة، لِتَضْمُنْ مشيئته سبحانه، على الحكم البالغة.

﴿وَلِصَفَىٰ إِلَيْهِ﴾ صَغَا إِلَى الشَّيْءِ: مال، أي يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول، ليغترهم به، ولتميل إليه ﴿أَفْعِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وإنما حَصَّنَ بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة، إشعاراً بتعمقهم في الضلال وعدم إيمانهم بالآخرة، بما يلقي إليهم، فإن لذات الآخرة محفوفة في هذه النشأة بالمكاره، وآلامها مزينة بالشهوات، فالذين لا يؤمنون بها، لا يدرون أن وراء تلك المكاره لذات، ودون هذه الشهوات آلاماً، وإنما ينظرون إلى ما بدا لهم في الدنيا بادي الرأي، فهم مضطرون إلى حب الشهوات، التي من جملتها مزخرفات الأقاويل، وأما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال، ناظرين إلى عواقب الأمور، لم يتصور منهم الميل إلى المزخرفات، لعلمهم ببطلانها، ووخامة عاقبتها ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم، بعدما مالت إليه أفئدتهم ﴿وَلِيَقْرَفُوا﴾ أي ليكتسبوا بموجب ارتضائهم له ﴿مَا هُمْ مُقْرَفُونَ﴾ له من القبائح، التي لا يليق ذكرها.

﴿أَفْغَيْرَ اللَّهِ أَتَّبَعِيَ حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا  
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ  
الْمُضْمِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ  
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

﴿أَفْغَيْرَ اللَّهِ أَتَّبَعِيَ حَكْمًا﴾ أي قل لهم: أغير الله أطلب من يحكم بيني وبينكم؟ والحكم أبلغ من الحاكم، لأنه لا يوصف به إلا العادل، يُروى أن مشركي قريش قالوا لرسول الله ﷺ: «اجعل بيننا وبينك حكماً من أحبار اليهود، أو من أساقفة النصارى، ليخبرونا عنك بما في كتابهم من

أمرك، فتزلت الآية»<sup>(١)</sup> ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي أغير الله أبتغي حكماً، والحال أنه هو الذي أنزل إليكم القرآن، الناطق بالحق والصواب، مبيناً فيه الحق والباطل، والحلال والحرام، وغير ذلك من العقائد والشرائع؟ فأبي حاجة بعد ذلك إلى الحكم؟ فكفي به حاكماً بيني وبينكم ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم، أن القرآن حق وأنه كلام الله تعالى لموافقته لما عندهم من التوراة والإنجيل، وفي التعبير عن التوراة والإنجيل باسم الكتاب، إيحاء إلى ما بينهما وبين القرآن من المجانسة، المقتضية للاشتراك في الحقيقة والنزول من عند الله تعالى، حيث وجدوه حسبما نعت فيه، وعانيوه موافقاً له في الأصول، ومخبراً عن أمور لا طريق إلى معرفتها سوى الوحي، مع أنه ﷺ لم يمارس كتبهم، ولم يخالط علماءهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ أي الشاكين في أنه منزل من ربك بالحق، فيكون من باب التهيج، وقيل: الخطاب للأمة وإن كان له ﷺ صورة، فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه، لأنه حق منزل من عند الرحمن.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ شروع في بيان كمال القرآن، أي تمّ كلام الله المنزل على خاتم النبيين ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ مصدران نصباً على الحال، أي صدقاً فيما أخبر، وعدلاً فيما قدر، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي لا أحد يبذل شيئاً من كلماته، بما هو أصدق وأعدل منه، فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى؟ فيكون هذا ضماناً للقرآن وآياته بالحفظ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فلا نبي، ولا كتاب بعدها ينسخها، ويبدل أحكامها ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل ما يمكن أن يعلم، فيدخل في ذلك أقوال وأحوال البشر، ثم إنه تعالى لما أجاب عن شبهات الكفار، وبين بالدليل صحة النبوة، أرشد إلى أنه بعد ظهور الحجة لا ينبغي أن يلتفت العاقل إلى كلمات الجهال، فقال عزّ شأنه:

(١) انظر زاد المسير في التفسير لابن الجوزي ٣/١١٠ ونسبه إلى الماوردي.

﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٨﴾ ۝ .

قوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ المراد بـ ﴿ مَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ الناس، وبأكثرهم: الكفار الضالون المضلون، أي إن تطعمهم بمخالفة ما شرع لك، يضلوك عن الحق، وعن الشريعة التي شرعها الله لعباده، لأن الضال لا يأمر إلا بما فيه ضلال ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما يتبعون فيما هم عليه من الشرك والضلال ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ وظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، فهم على آثارهم يهتدون ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يكذبون، وأصل الخرص: القول بالظن والتخمين، وهو أقبح أنواع الكذب، أي يكذبون على الله سبحانه، فيما ينسبونه إليه، كاتخاذ الزوجة، والولد، وعبادة الأوثان، وتحليل المتعة، وتحريم البحائر، وغير ذلك.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي هو تعالى أعلم بالفريقين، بمن ضل عن سبيل الرشاد، وبمن اهتدى إلى طريق الإيمان والسعادة.

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ۝ .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أمرٌ مرتب على النهي عن اتباع المضلين، روي عن ابن عباس قال: جاء اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما يقتل الله تعالى؟ فأنزل الله الآية. أي إذا كان

أمر أكثر الناس على الضلال، فكلوا مما ذكر اسم الله تعالى عليه، ولو كان من البحائر، والسوائب، ونحوها<sup>(١)</sup> ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِنَا مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِهَا يَقْتَضِي اسْتِبَاحَةَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، واجتناب ما حرّمه، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله، تقديره: فكلوا مما ذكر عليه اسم الله.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ؟﴾ وأيُّ غرضٍ لكم في أن تخرجوا عن أكله، وما يمنعكم عنه؟ إنكار لأن يكون لهم شيء يدعوهم إلى الاجتناب، عن أكل ما ذكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب، ونحو ذلك، وسبب نزول الآية، أن المسلمين كانوا يخرجون من أكل الطيبات تزهداً، فنزلت<sup>(٢)</sup> ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِيهَا أَوْحِيَ إِلَيَّ محرماً﴾ الآية، فبقي ما عدا ذلك على الحل ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرّم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ﴾ أي كثير من الكفار، يُضِلُّونَ الناس بتحليل الحرام، وتحريم الحلال ﴿يَأْهَوُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بتشبههم من غير تعلق بدليل يفيد العلم، المقتبس من الشريعة، بل بمجرد الأهواء والشهوات، يُضِلُّونَ غيرهم كما ضلوا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ بالمتجاوزين الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، فيجازيهم على صنيعهم، والمراد بهم هذا الكثير، ووَضَعَ الظاهر موضع ضميرهم، لوصفهم بصفة الاعتداء.

﴿وَذَرُوا ظِلْهَرَ الْأَيْثِمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَيْثِمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٢٤٦/٥ ولفظه: أتى أناس النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله: أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ الآية.

(٢) انظر تفسير ابن الجوزي ١١٢/٣.

﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أي اتركوا المعاصي ما يُعلن منها وما يسرُّ، وما بالجوارح وما بالقلب، روي أن أهل الجاهلية، كانوا يرون أن الزنا إذا ظهر كان إثماً، وإذا استتر فلا إثم فيه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتَسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ أي يكتسبون الإثم من الظاهر والباطن ﴿سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ أي سيلقون جزاء إجرامهم في الآخرة، بقدر ما كانوا يبالغون في إفساد فطرتهم، بالإصرار عليه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ظاهر الآية في تحريم متروك التسمية، عمداً أو نسياناً، وإليه ذهب أحمد وقال مالك والشافعي ذبيحة المسلم حلال، وإن لم يذكر اسم الله عليها، وفرق أبو حنيفة بين العمد والنسيان قال: إن ترك التسمية عمداً حرم، وإن تركها نسياناً حلّ لإحدى «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»<sup>(١)</sup> ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي وإن الأكل منه لمعصيةً وخروج عن طاعة الله ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ أي يوسوسون ﴿إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ الذين اتبعوهم من المشركين فيما أنهوا إليهم بقولهم: إن محمداً وأصحابه، يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، ثم يزعمون أن ما يقتلونه حلال، وما يقتله الله حرام، يعنون الميتة ﴿لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ﴾ بالسواوس الشيطانية ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال الحرام، وساعدتموهم على أباطيلهم ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ضرورة أن من ترك طاعة الله إلى طاعة غيره، فقد أشرك به تعالى، بل أثره عليه سبحانه، والظاهر أن التعبير عن هذه الإطاعة بالشرك، من باب التغليب.

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٤٤٠٠ في الحدود، وإسناده حسن.

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٢٢﴾ .

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ هذا تمثيل للمؤمنين والكفار، فالمؤمنون مستنيرون بأنوار الوحي الإلهي، والمشركون خابطون في ظلمات الكفر، فكيف يُعقل إطاعتهم لهم؟ والهمزة للإنكار والنفي، أي أو من كان ﴿ مِيتًا ﴾ أي كافرًا ﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ أي فأعطيناه الحياة المعنوية، لأن الإيمان حياة القلوب ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ ﴾ مع ذلك ﴿ نُورًا ﴾ عظيمًا، يميز به الحق والباطل، وهو نور القرآن لقوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (١) ﴿ يَمْشِي بِهِ ﴾ أي بسببه ﴿ فِي النَّاسِ ﴾ أي فيما بينهم آمنًا ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ أي خابطٌ فيها ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ ولا يتخلص منها، لأنها قد أحاطت به، ولم يشعر بالحاجة إلى الخروج منها إلى النور، قال ابن عباس: إن المراد بالميت الكافر، وبالإحياء: الهداية، وبالنور: القرآن، وبالظلمات: الكفر والضلالة (٢)، والآية نزلت في عمر رضي الله عنه وهو المراد بمن أحياه الله تعالى، وأبي جهل الذي بقي يتخبط في ظلمات الكفر والجهل، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل في ذلك كل من انقاد لأمر الله، ومن بقي على الضلالة ﴿ كَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى التزيين المذكور، أي كما أبقينا هذا الكافر يتخبط في الظلمات كذلك ﴿ زُيِّنَ ﴾ من جهته تعالى خلقاً، ومن جهة الشيطان وسوسة ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ كأبي جهل وأضرابه ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصي، التي من جملتها ما حكى عنهم من القبائح.

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٧.

(٢) شبه تعالى المؤمن بالحي، الذي استنار قلبه بنور المعرفة والإيمان، فهو يعرف الطريق ويهتدي إلى منافع الدنيا والآخرة، كما شبه الكافر بالميت، الذي يتخبط في ظلمات الضلالة والكفر، لا يعرف المنفذ ولا المخلص، ففي الآية استعارة بديعة.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا  
 وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٧٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ  
 نُؤْمِنَ حَتَّى تُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ  
 سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا  
 يَمْكُرُونَ ﴿ (١٧٤) .

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي كما جعلنا في مكة مجرمين ﴿ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا  
 مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ وجعلنا بمعنى صيرنا، وتخصيص الأكارب لأنهم  
 أقوى على استتباع الناس، والمكر بهم، أي جعلناهم مزيناً لهم أعمالهم،  
 مصرين على الباطل، مجادلين به الحق، ليمكروا فيها، وهذا تسلية  
 للرسول ﷺ ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ لأن وباله يحيق بهم، اعتراض  
 على سبيل الوعد لرسول الله ﷺ، والوعيد للكفرة ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي  
 والحال أنهم ما يشعرون بذلك أصلاً، بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم،  
 نظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (١) وهذا بيان من  
 معجزات القرآن الكريم، فأولئك المجرمون الذين يعادون الرسول ﷺ  
 ويمكرون في عصرهم، ولا يحيق مكرهم إلا بأنفسهم، قد وقع الأمر كما  
 أنبا الله ذو الجلال، ويكون كذلك من يعادون الحق، ويمكرون بأهله.

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ هذا رجوع إلى بيان حال مجرمي أهل مكة،  
 بعدما بين بطريق التسلية أن حال غيرهم أيضاً كذلك، أي إذا جاءتهم  
 معجزة أو آية من القرآن، تأمرهم بالإيمان ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ  
 رَسُولُ اللَّهِ ﴾ قال المفسرون: قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوة حقاً،  
 لكنت أحق بها، فإني أكثر منه مالاً وولداً، وقال مقاتل: نزلت الآية في  
 أبي جهل حين قال: «زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا

(١) سورة فاطر، آية: ٤٣ .

كفرسي رهان، قالوا: منّا نبيّ يُوحى إليه؟ والله لا نرضى به، ولا نتّبعه أبداً حتى يأتينا وحيّ كما يأتيه»، وقال الضحاك: سألت كل واحد من القوم أن يختص بالرسالة والوحي، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾<sup>(١)</sup> ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي الله أعلم من هو أهل للرسالة، فإن النبوة ليست بالنسب والمال، وإنما هي بفضائل نفسانية، يخصّ الله تعالى بها من يشاء من عباده، فيجتبي لرسالته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه، فقد جرت عادة الله تعالى، أن يبعث من كل قوم أشرفهم، وأطهرهم جبلةً ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ استئناف ناع عليهم ما سيلقونه من فنون الشر، بعدما نعى عليهم حرمانهم، مما أمّلوه من عزّ النبوة، وشرف الرسالة، والسين للتأكيد أي سيصيب هؤلاء، المجرمين، على وجه التحقيق واليقين ﴿صَغَارٌ﴾ أي ذلٌّ وحقارة بعد تكبرهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي من عند الله يذلّهم به، ويهينهم في هذه الحياة الدنيا ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿يَمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أي بسبب مكرهم المستمر، وجزاء مكرهم الشرير.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١٢٥)</sup>

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ أي يعرفه طريق الحقّ، ويوفقه للإيمان ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فيتسع له، وينفسح لقبوله وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحقّ، مهيةً لحلولة، مصفاةً عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار ﷺ حين سئل عنه فقال: نورٌ يقذفه الله في قلب المؤمن، فينشرح له،

(١) سورة المدثر، آية: ٥٢.

وينفسح، فقالوا: هل لذلك أَمارة؟ فقال، ﷺ: الإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ النُّزُولِ<sup>(١)</sup> ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ أي يخلق فيه الضلالة، لسوء اختياره ﴿يَجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيْقًا﴾ بحيث ينبو عن الحق، فلا يدخله الإيمان ﴿حَرَجًا﴾ شديد الضيق، وهو مأخوذ من الحرجة، وهي الأشجار الملتفتُ بعضها على بعض، لا يصل إليها شيء ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ شَبَّهَ مَبَالِغَةَ فِي ضَيْقِ صَدْرِهِ، بِمَنْ يَزَاوِلُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَإِنْ صَعِدَ السَّمَاءُ مِثْلًا فِيمَا يَبْعُدُ عَنِ الْإِسْطَاعَةِ، وَتَبَّهَ بِهِ عَلَى الْإِيمَانِ يَمْتَنِعُ عَنْهُ، كَمَا يَمْتَنِعُ عَنِ الصُّعُودِ، وَأَصْلُ يَصْعَدُ يَتَصَعَّدُ ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجعل ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ﴾ أي العذاب والخذلان ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي على الكفرة المجرمين الذين لا يؤمنون بآيات الله.

قال مجاهد: الرجس ما لا خير فيه، وقال الزجاج: هو اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وهذه الآية الكريمة، معترك أهل الكلام، فالقدرية ينكرون خلق الخلق بتقدير سابق من الله تعالى، ويقولون: إن الآية ظاهرة في أن هداية الإنسان يخلق في صدره انشراحاً للإسلام، وهذا الخلق يحصل أنفاً أي جديداً غير مرتب على تقدير سابق، والجبرية يقولون إسلام المرء بفعل الله وحده، ليس باختيار العبد وكسبه، والأشعرية يقولون: له فيه كسب، ولكنه بخلق الله جل وعلا، والإنسان مسؤول عن كسبه وفعله، ويقول المعتزلة إيمان المرء وكفره بفعله المستقل، ومن نظر في الكتاب الكريم، يتجلى له الحق، فقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقال ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فإن كل شيء بإرادته ومشيئته، وفيه أن المكلف بفعله وكسبه واختياره، ولا يكون فعله منافياً لخلق الله ومشيئته، ولا مستغنياً عن توفيقه وإمداده.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري ١٠٠/١٢ وانظر ابن كثير ١٨١/٢.

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾  
 ﴿ لَّهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

﴿ وَهَذَا ﴾ الذي جاء به القرآن ﴿ صِرَاطُ رَبِّكَ ﴾ الطريق الذي ارتضاه لعباده، وذكرُ الربوبية، إيدان بأنَّ تقويم ذلك الصراط للتربية، وإفاضة الكمال ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ أي لاعوج فيه، أو عادلاً مطرداً فاستمسك به ﴿ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ ﴾ بينها مفصلة ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يتذكرون ما في تضاعيفها، فيعلمون أن كل ما يحدث من الحوادث، خيراً كان أو شراً، فإنما يحدث بقضاء الله وخلقه، وأنه تعالى عالم بأفعال العباد، حكيم عادل فيما يفعل ويريد، وتخصيصُ القوم بالذكر لأنهم هم المنتفعون.

﴿ لَّهُمْ ﴾ أي للمتذكرين ﴿ دَارُ السَّلَامِ ﴾ أي دار الله أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ذخيرة لهم عنده، لا يعلم كنهها غيره ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ أي مولاهم وناصرهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالهم الصالحة، التي كانوا يتقربون بها إليه في الدنيا.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَلْمَعُشَرِ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ نصب بإضمار اذكر والضمير لمن يُحشر من الثقلين ﴿ يَلْمَعُشَرِ الْجِنَّ ﴾ يعني الشياطين بدليل قوله تعالى: ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ والمعشرُ: الجماعةُ من الناس، أمرهم واحد، المعشر، والنَّفَرُ، والقومُ، والرهطُ، معناهم الجمع لا واحد لهم، للرجال دون النساء ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أتباعكم أي استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم، فحشروا معكم، كقولهم: استكثر الأمير من الجنود، وهذا

بطريق التوبيخ ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ ﴾ الذين أطاعوهم ﴿ رَبَّنَا أَسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ أي انتفع الإنس بالجن، بأن دلّوهم على الشهوات، وما يتوصل به إليها، والجن بالإنس، بأن أطاعوهم، وحصلوا مرادهم، وكانوا وسطاء في الإغواء والتضليل، وهو اعتراف بما فعلوه من طاعة الشيطان، واتباع الهوى، وإظهار الندامة عليها ﴿ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا ﴾ أي البعث، ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين، للإيدان بأن المضلين قد أفضموا، فلم يقدرُوا على الكلام أصلاً ﴿ قَالَ ﴾ ربنا عزَّ وجل ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ ﴾ منزلكم ومحل إقامتكم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين في نار جهنم أبداً ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ قبل الدخول، وهو ما بين الحشر إلى دخول النار، كأنه قيل: النار مثواكم أبداً، إلا ما أمهلكم الله، وقيل: هذا الاستثناء معلق بمشيئة الله تعالى، وفائدته إظهار القدرة، وكان من الجائز العقلي في مشيئته تعالى أن لا يعذبهم، ولو عدّبهم ألا يُخلدّهم، وليس بأمر واجب عليه، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله ﴿ عَلَيْهِ ﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم، وبما يليق بهم من الجزاء.

﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ مثل ما سبق من تمكين الجن من إغواء الإنس ﴿ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ ﴾ من الإنس ﴿ بَعْضًا ﴾ آخر منهم، أي نجعلهم بحيث يتولونهم، بالإغواء والإضلال وغير ذلك، واستدل به على أن الرعية إذا كانوا ظالمين، فالله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم، كما ورد في الأثر «كما تكونون يولّ عليكم»<sup>(١)</sup> ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ بسبب ما كسبوه من الكفر.

(١) روي عن ابن عباس أنه قال: «إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم، وإذا سخط على قوم ولّى أمرهم شرارهم» وعن مالك بن دينار قال: قرأت في بعض كتب الحكمة أن الله تعالى يقول: «إني أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليهم رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة» التفسير الكبير للفخر الرازي.

﴿ يَمَعَشِرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ .

﴿ يَمَعَشِرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ توبيخ المعشرَين بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسهم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ رُسُلٌ ﴾ من عند الله عز وجل ﴿ مِّنكُمْ ﴾ من جملتكم، لأن الرسل من الإنس خاصة، وإنما جعلوا منهما للإيدان بتقاربهما واتحادهما، تكليفاً وخطاباً، كأنهما جنس واحد، فقد ثبت أن الجن استمعوا القرآن، وأنذروا به قومهم، كما أخبر الله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾<sup>(١)</sup> الآية وقال الضحاك: إن الله تعالى أرسل للجن رسلاً منهم، كذلك، وادعى البعض قيام الإجماع على أن الله لم يرسل إلى الجن رسولاً منهم كما يدل عليه ظاهر الآيات، كحصر الرسالة في الرجال وجعلها في ذرية نوح، وإبراهيم، وجملة القول أنه ليس في المسألة نص قطعي، فنحن نؤمن بما ورد، ونفوض الأمر إلى الله تعالى ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ﴾ أي يتلون عليكم آيات ربكم التي بها سعادتكم وفلاحكم ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ ﴾ أي يخوفونكم ﴿ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ يوم الحشر، الذي عاينوا فيه أفانين العقاب ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ﴾ أي بإتيان الرسل وإنذارهم، وبمقابلتهم بالكفر والتكذيب، كما حكى تعالى عنهم: ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ اعتراض لبيان ما أداهم إلى ارتكاب القبائح، أي اغتروا في الدنيا بالحياة الفانية ﴿ وَشَهِدُوا ﴾ في الآخرة ﴿ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا ﴾ في الدنيا ﴿ كَافِرِينَ ﴾ بالآيات والنذر التي أتى بها الرسل.

(١) سورة الأحقاف، آية: ٢٩.

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣٦﴾  
 وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَّبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قص من أمرهم ﴿ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ ﴾  
 «أَنْ» مخففة من «إِنَّ» وضمير الشأن اسمها، والمعنى ذلك ثابت لأن الشأن  
 لم يكن ربك مهلك القرى ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ بسبب أي ظلم فعلوه، قبل أن ينهوا  
 عنه، بإنزال كتاب، وإرسال رسول، لأن الله عادل فلا يعاقب أحداً إلا بعد  
 الإنذار ﴿ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ أي وهم غافلون لم ينهوا برسول، وإنما علل بما  
 ذكر لبيان كمال نزاهته سبحانه عن الظلم.

﴿ وَلِكُلِّ ﴾ من المكلفين من الثقلين، الذين بلغتهم الدعوة  
 ﴿ دَرَجَةٍ ﴾ أي مراتب متفاوتة ﴿ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ أي من أعمالهم، صالحة  
 كانت أو سيئة، سيجازون عليها ﴿ وَمَا رَّبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ليس  
 الله غافلاً ولا ناسياً لأعمال العباد، بل هو رقيب عليهم، مطلع على  
 أقوالهم وأفعالهم، وفيه تهديد ووعد للإنس والجن، وأنه سبحانه  
 سيجازيهم بما يستحقونه من ثواب أو عقاب.

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ  
 بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٨﴾  
 مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٩﴾ قُلْ يَتَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ  
 مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ  
 لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤٠﴾ .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ﴾ عن العباد والعبادة، المعروف بالغنى عن كل ما  
 سواه، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ﷻ لإظهار

اللطف به، وتنزيه ساحته عن شمول الوعيد الآتي له ﴿ذُو الرِّحْمَةِ﴾ أي الموصوف بالرحمة العامة، فيترحم على العباد، ويمهلهم على المعاصي إلى ما شاء، وفيه تنبيه على أن الإرسال للرسول، ليس لنفسه، بل رحمة من الله على العباد ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ما به إليكم حاجة، إن يشأ يذهبكم أيها العصاة، ﴿وَيَسَخِّفْ مِنْ بَعْدِكُمْ﴾ أي وينشئ من بعد إذهابكم ﴿مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق والعباد، يكونون أعبد منكم لله، وأطوع ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي قرناً بعد قرن، لكنه أبقاكم ترحماً عليكم، وتضمنت الآية التحذير من بطش الله عز وجل وانتقامه من العصاة المجرمين.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث وأحواله، والحساب والثواب والعقاب ﴿لَآتٍ﴾ لكائن لا محالة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾<sup>(١)</sup> وإيثاره عليه لبيان كمال سرعة وقوعه، بتصويره بصورة طالب حثيث، لا يفوته هارب ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ولستم معجزين بركم، ولا خارجين عن قدرته وعقابه وإن ركبتهم في الهرب، متن كل صعب وذلول.

﴿قُلْ يَقَوْمِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ وهو أمر له عليه السلام بطريق التلوين، بأن يواجههم بتشديد التهديد، وتكرير الوعيد، ويُظهر لهم ما هو عليه من غاية التصلب في الدين، وعدم المبالاة بهم، أي قل يا رسول الله ﴿يا قومي﴾ وفي هذا النداء ضرب من الاستمالة لهم، يذكّرهم بأنهم قوم الرسول، الذين يحرص على خيرهم ومنفعتهم ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم، والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمعادة، والغرض منه التهديد والتخويف، لا أنه أمر وطلب ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ ما كنت عليه من المصابرة، والثبات على الإسلام ﴿فَسَوْفَ

(١) سورة المرسلات، آية: ٧.

تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ ﴿١٧٣﴾ سوف لتأكيد مضمون الجملة، أي فسوف تعلمون أيّنا له العاقبة الحسنى، التي خلق الله تعالى لها هذه الدار، وفيه مع الإنذار، إنصافٌ في المقال، وحسن الأدب، وتنبية على وثوق المنذر بأنه محق ﴿إِنَّهُ﴾ أي الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وضع الظلم موضع الكفر، إيذاناً بأن امتناع الفلاح، يترتب على أي فرد من أفراد الظلم.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿وَجَعَلُوا﴾ شروع في تقييح أحوالهم، بحكاية أقوالهم وأفعالهم السخيفة، تنبيهاً على ضعف عقولهم، وتنفيراً للعقلاء عن الالتفات إلى كلامهم، أي وجعل مشركو العرب ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي ممّا خلق وأوجد من أنواع المخلوقات ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ يعني الزرع والشمر ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ يعني من نتاج الإبل، والبقر، والغنم، جعلوا لله تعالى أشياء، وأشياء منها لآلهتهم، فإذا رأوا ما جعلوه لله زاكياً نامياً، أخذوه فجعلوه لآلهتهم، وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم تركوه، وإذا انتقص شيء مما جعلوه للأوثان، جبروه مما جعلوه لله، معتلين بأن الله تعالى غنيٌّ، وما ذلك إلا لحب آلهتهم، وإيثارهم لها، فما جعلوه لله صرفوه للضيفان والمساكين، وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها، وعلى خدامها، وفيه تنبيه على فرط جهالتهم، حيث أشركوا الخالق في خلقه، جماداً لا يقدر على شيء، ثم رجّحوه عليه تعالى<sup>(١)</sup> ﴿نَصِيبًا﴾ أي جعلوا لله نصيباً، ولأصنامهم نصيباً،

(١) قال ابن عباس: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله =

ولم يذكر اكتفاء بقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه، ولم يأمر الله تعالى به، والمراد بالشركاء الأوثان، وسموهم شركاءهم لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، ﴿فَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ﴾ أي فما عيّنوه لشركائهم لا يصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عيّنوه لله تعالى، وما عيّنوه لله يُصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عيّنوه لآلهتهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ من إيثار مخلوق عاجزٍ عن كل شيء، على خالقٍ قادرٍ على كل شيء، وعملهم العجيب لا يقبله عقل ولا شرع، ولذا نسب إلى الإساءة.

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١٧٧)

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي ومثل ذلك التزيين في قسمة الحرث والأنعام ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي مشركي العرب ﴿قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ فكانوا يثدنون البنات الصغار، بأن يدفنوهنَّ أحياء، وكانوا في ذلك فريقين: أحدهما يقول: إن الملائكة بنات الله سبحانه، فألحقوا البنات بالله تعالى، والآخر يقتلن خشية الإنفاق وكانوا ينذر أحدهم إذا بلغ بنوه عشرة أن ينحر واحداً منهم ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ من الشياطين أو من السدنة، سميت الشياطين شركاء، لأنهم أطاعوهم في المعصية، وقتل الأولاد، وقال الكلبي: هم سدنة آلهتهم، لأنهم كانوا يزيّنون قتل الأولاد

= منه جزءاً، وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة من نصيب الأوثان، حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سُمي لله، رُدّوه إلى الوثن وقالوا: إن الوثن فقير، والله غني، وأخذوا حق الله فجعلوه للأصنام أهـ، تفسير ابن كثير ١٨٦/٢.

﴿ لِيُرَدُّوهُمْ ﴾ أي يهلكوهم بالإغواء، والتزيين الرديء الفاسد، الذي يذهب بما أودع الله في قلوب الوالدين من عواطف الرحمة والرأفة، بل يقلبها إلى منتهى الوحشية، حتى يقتل ريحانة قلبه ﴿ وَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ أي يخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، حتى انحرفوا عنه إلى الشرك ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ عدم فعلهم ذلك ﴿ مَا فَعَلُوهُ ﴾ ما فعل المشركون ما زين لهم الشياطين ﴿ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴾ أي فدعهم وما يختلفونه من الإفك والكذب على الله، وهو وعيد وتهديد للمشركين شديد.

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِزْعِهِمْ وَأَنْعَمٌ حَرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا ﴾ حكاية لنوع آخر من أنواع كفرهم ﴿ هَذِهِ ﴾ إشارة إلى ما جعلوه لآلهتهم ﴿ أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ حِجْرٌ ﴾ أي ممنوع منها ﴿ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ ﴾ يعنون خدم الأوثان، من الرجال دون النساء ﴿ بِرِزْعِهِمْ ﴾ أي قالوا ذلك متلبسين بزعمهم الباطل، من غير حجة ﴿ وَأَنْعَمٌ ﴾ أي وهذه أنعام ﴿ حَرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يعنون بها البحائر والسوائب والحوامي ﴿ وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ أي عند الذبح وإنما يذكرون عليها اسم الأوثان والأصنام ﴿ افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴾ أي على الله سبحانه، وجملته القول أنهم قسموا أنعامهم إلى هذا التقسيم، وجعلوه من أحكام الدين، ونسبوه إلى الله تعالى افتراءً عليه سبحانه ﴿ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي بسببه، وفي إبهام الجزاء من التهويل ما لا يخفى.

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لَّذِكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا ﴾ حكاية لفرن آخر من فنون كفرهم ﴿ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ الْأَنْعَامِ ﴿ يعنون به أجنة البحائر، والسوائب، كما روي عن مجاهد ﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ أي حلال لهم خاصة، إن وُلد حياً، دون الإناث ﴿ وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ وهن الإناث باعتبار اللفظ ﴿ وَإِنْ يَكُن مَيِّتَةً ﴾ أي وإن ولدت ميتة ﴿ فَهِنَّ ﴾ أي الذكور والإناث ﴿ فِيهِ ﴾ أي فيما خرج من بطون الأنعام ﴿ شُرَكَاءُ ﴾ أي يأكلون من الميتة جميعاً ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي جزاء وصفهم الكذب على الله تعالى، في التحليل والتحریم، كقوله تعالى: ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾ ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أي حكيم في تدبيره، عليم بخلقه، والحكيم العليم لا يترك جزاءهم، الذي هو من مقتضيات الحكمة، واستدل بالآية، على أنه لا يجوز الوقف على أولاده الذكور، دون الإناث، وأن ذلك الوقف يفسخ، ولو بعد موت الواقف، لأن ذلك فعل الجاهلية، واستدل بعض المالكية بمثل ذلك في الهبة، وأخرج البخاري عن عائشة قالت: «يعمد أحدكم إلى المال فيجعله للذكور من ولده، إن هذا إلا كما قال الله تعالى: ﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾»<sup>(١)</sup>.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ ﴾ وهم قبيلة ربيعة، ومضر، وأضرابهم من العرب، الذين كانوا يندون بناتهم، مخافة السبي والفقير، أي خسروا دينهم وديناهم ﴿ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لخفة عقولهم، وجهلهم بأن الله رازق أولادهم لا هم، ولذا سُمُّوا جاهلية ﴿ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما وهذا أيضاً من الجهالة ﴿ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ﴾ وهذا أيضاً من الجهالة لأن الجراءة على الله تعالى، والكذب عليه من أعظم الذنوب ﴿ قَدْ ضَلُّوا ﴾ عن

(١) أخرجه البخاري موقوفاً على عائشة رضي الله عنها.

الطريق المستقيم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إليه وأن هدوا بفنون الهداية، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا سَرَكَ أن تعلم جهل العرب، فاقراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٧﴾ ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ ﴾ أي هو الله الذي خلق بساتين من غير شركة لأحدٍ فيها ﴿ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ المعروشات من الكرم: ما يُحمل على العريش، وهي عيدان تصنع كهيئة السقف يُوضع الكرم عليها ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ ملقيات على وجه الأرض على حالها، وقيل: إن المعروش ما يحتاج إلى العريش من الكرم، وغير المعروش هو القائم من الشجر، المستغني باستوائه، وقوة ساقه ﴿ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ ﴾ أي أنشأهما كذلك ﴿ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ ﴾ أي ثمره الذي يؤكل، مختلفاً في الهيئة والكيفية ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والشكل ولا يتشابه في الطعم ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ وإن لم يدرك ولم ينضج، وفائدة رخصته في الأكل منه قبل أداء حقه، ولا يتوهم أنه لا يُباح إلا إذا أدرك، وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق، لأن رعاية النفس مقدمة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾<sup>(٢)</sup> وفي الخبر

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ٥٥١/٦ فتح الباري.

(٢) سورة القصص، آية: ٧٧.

«ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ﴾ الذي أوجبه الله تعالى فيه ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وهو في رواية ابن عباس العشر، أو نصف العشر كما ذهب إليه الحسن وقتادة ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في التصدق كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ روي عن ابن جريج قال: نزلت في «ثابت بن قيس» قطف خمسمائة نخلة، ففرّق ثمرها كلها، ولم يدخل منه إلى منزله شيئاً»<sup>(١)</sup> ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ بل يبغضهم من حيث إسرافهم.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ﴾ أي خلق لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يفرش، أي يضجع للذبح والأكل، والمراد بها الكبار الصالحة للحمل، والصغار التي تذبح للأكل كأنها فرش ﴿كُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي كلوا بعض ما رزقكم الله منها من الحلال، وفيه تصريح بأن إنشاءها لأجلهم ومصلحتهم، ولا تحرموها كما في الجاهلية، وقيل معنى الآية: استحلوا الأكل مما أعطاكم الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ في أمر التحليل والتحريم، تقليد أسلافكم المفتريين على الله سبحانه ﴿خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي طرقة، فإن ذلك باغوائه واستتباعه إياهم أي طرقة، فقد أخرج أبويعكم من الجنة.

﴿ثُمَّ نَبِيَّةَ أَرْوَجٍ مِّنَ الضَّكَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِيُّنِي يَعْلَمُ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَم كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٣٨/١٢ قال: والمختار قول عطاء أنه نهى عن الإسراف في كل شيء.

﴿ثَمَنِيَّةَ أَرْوَجٍ﴾ أي خلق لكم من الأنعام ثمانية أنواع، أحلَّ لكم أكلها ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي أنشأ من الضأن اثنين: الكبش والنعجة، وهي: ذوات الصوف من الغنم، الواحد ضائن، والأنثى ضائنة ﴿وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ﴾ التيس، والعنز، جمع ما عَز كصاحب وصحب، وهي ذوات الشعر من الغنم وهذه الأربعة تفصيل للفرش، الذي هو معظم ما يتعلق به الحلُّ والحرمة ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم، وإظهاراً لعجزهم عن الجواب ﴿ءَالَّذِكْرَيْنِ﴾ من ذينك النوعين وهما: الكبش، والتيس ﴿حَرَّمَ﴾ الله عزَّ وجلَّ كما تزعمون أنه هو المحرم ﴿أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾؟ وهما النعجة والعنز ﴿أَمَّا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾؟ أي أم ما حملت إناث النوعين حَرَم، ذكراً كان أو أنثى؟ ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ أي أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى، جاءت به الأنبياء يدل على أنه تعالى حَرَّمَ شيئاً مما ذُكر ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى التحريم عليه سبحانه.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ هما الجمل، والناقة ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ هما الثور، والبقرة ﴿قُلْ﴾ إفحاماً لهم ﴿ءَالَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾؟ كَرَّرَهُ مبالغة في التوبيخ والتفريع، والمعنى كما قال كثير من العلماء: إنكار أنه تعالى حَرَّمَ عليهم شيئاً من هذه الأنواع الأربعة، وإظهار كذبهم في ذلك، وإنما عقب كل واحد مما ذُكر من الأمر والإنكار، لما في التكرير من المبالغة في التبكيت والإلزام ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ تكرر للإفحام، أي بل أكنتم شاهدين ﴿إِذْ وَصَلَكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ أي حين وصاكم بهذا التحريم، إذ أنتم لا تؤمنون بنبي، فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك، إلا المشاهدة والسمع، وفيه من التهكم بهم ما لا يخفى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي من أظلم ممن نسب إليه تعالى تحريم ما لم يُحرِّم بغير دليل ولا برهان؟ ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جاهلاً بصدور التحريم عنه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ كائناً من كان، أي لا يوفقه ولا يرشده إلى طريق الخير والسعادة.

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿١٤٥﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ أمرٌ لرسولِ الله ﷺ، بعد إلزام المشركين وتبكيتهم، بأن يبين لهم ما حرّم الله تعالى عليهم، أي قل يا رسول الله ﴿ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ في القرآن الذي أوحاه الله إليّ، وفيه تنبيه على أنّ التحريم إنما يُعلم بالوحي، أي لا أجد بعدما تفحصت ما أوحى الله إليّ ﴿ مُحَرَّمًا ﴾ أي محرّمًا من المطاعم التي حرّمها ﴿ عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أيّ طاعم كان، من ذكرٍ أو أنثى ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ﴾ ذلك الطعام ﴿ مَيْتَةً ﴾ أي بهيمة ماتت حتف أنفها والمراد بها ما لم يذبح ذبحاً شرعياً، فيتناول المنخقة ونحوها ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ أي دمًا سائلاً مصبوباً، وقد رُخص في دم العروق بعد الذبح ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ ﴾ أي أو أن يكون لحم خنزير ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ أي الخنزير ﴿ رِجْسٌ ﴾ أي قذرٌ ونجسٌ، لتعود الخنزير أكل النجاسة ﴿ أَوْ فِسْقًا ﴾ أي أو أن يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام ﴿ أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ أي ذبح على غير اسم الله ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ ﴾ أي أصابته الضرورة، الداعية إلى تناول شيء من ذلك ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي غير طالب ما ليس له طلبه، أو غير قاصد التلذذ بأكله ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ أي متجاوزٍ قدر الضرورة ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ مبالغٌ في المغفرة، والرحمة، ولا يؤاخذ به بذلك، والاستثناء منقطع، أي لا أجد ما حرّمه، لكن أجد الأربعة المذكورة التي حرّمها الله، ولا دلالة في الآية على الحصر، وإنما هو ردٌ لمزاعم أهل الجاهلية، فيما حرّمه من تلقاء أنفسهم.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ﴿١٤٦﴾ .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾ أي اليهود خاصة عقوبة لهم ﴿ حَرَمْنَا ﴾ فوق ما ذكر من المحرمات الأربعة ﴿ كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾ أي ما ليس منفرج الأصابع، كالإبل، والنعام، والأوز، والبط، قاله ابن عباس ومجاهد، وعن ابن زيد أنه الإبل فقط ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَرِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ لا لحومهما، فإنها باقية على الحل ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ استثناء من الشحوم، أي ما علق بظهورهما والجنب، من داخل بطونهما من الشحم، ﴿ أَوْ الْحَوَايِكَا ﴾ أي ما حملته الحوايا وهي ما على الأمعاء من المباعر والمصارين ﴿ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ وهو كل شحم متصل بالعظم من الأضلاع وغيرها ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ذلك التحريم ﴿ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ بسبب ظلمهم، وهو قتلهم الأنبياء، وأكلهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وكانوا كلما أتوا بمعصية، عوقبوا بتحريم شيء مما أحل لهم، وهم ينكرون ذلك، ويدعون أنها لم تنزل محرمة على الأمم، فرد ذلك عليهم بقوله عز وجل ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في جميع أخبارنا التي من جملتها هذا الخبر.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِن آنتم إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ الضمير لليهود والمشركين، أي فإن كذبتك اليهود، وأصرؤوا على ادعاء قدم التحريم، وكذلك المشركون فيما نقل من أحكام

التحليل والتحرير ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ لا يؤاخذكم بكل ما تأتونه من المعاصي، بل يمهلكم ﴿وَلَا يَرُدُّ بَأْسَهُ﴾ أي لا يدفع عذابه ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ حين ينزل، فلا تغتروا بذلك، فإنه إهمال لا إهمال، وهو مع رحمته ذو بأس شديد، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ حكاية لفن آخر من كفرهم، وإخباره قبل وقوعه، ثم وقوعه حسبما أخبر، برهان ساطع على أنه كلام الله تعالى، لأنه إخبارٌ عن غيب ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا نشرك ﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ لما فعلنا الإشراف نحن ﴿وَلَاءَ آبَاؤُنَا﴾ من قبلنا ﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ مما حرّمنا، أرادوا به أن مافعلوه مرضيٌّ عند الله تعالى، كما أخبر الله عنهم في سورة الأعراف ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ (١) فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾. ولو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله، وإجلالاً له، ومعرفة بحقه، لما عابهم، ولكنهم قالوا هذا تكديباً واستهزاء، وجدلاً من غير معرفة بالله تعالى، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل ما كذب هؤلاء، كذب أسلافهم المشركون قبلهم كذبوا أنبياءهم بمثل مقاتلتهم ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي حتى ذاقوا عذابنا، الذي أنزلناه عليهم بتكذيبهم، وهو عذاب الاستتصال. وبعد هذا التذكير، أمر الله النبي ﷺ أن يطالب المشركين، بدليل علمي على زعمهم فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾؟ أي من أمرٍ معلوم، يصحّ الاحتجاج به على ما زعمتم؟ ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي فتظهروه لنا على أتم وجه؟ والاستفهام للتعجيز والتوبيخ، ولذلك عقب تعالى عليه، ببيان حقيقة حالهم، فقال ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون في ذلك ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الباطل الذي لا يغني من الحق شيئاً (٢) ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي

(١) الأعراف، آية: ٢٨.

(٢) قال ابن الجوزي ٣/١٤٥: جعلوا هذا حجة لهم في إقامتهم على الباطل، فكانهم =

تكذبون على الله تعالى، وليس فيه دلالة على المنع من اتباع الظن على الإطلاق، بل فيما يعارضه نصٌّ قطعي .

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾<sup>ط</sup> الفاء جواب شرط محذوف أي إذا ظهر أن لا حجة لكم فقل ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ التي بلغت غاية الظهور والإقناع، والمراد بها الكتاب المبين ﴿ فَلَوْ شَاءَ ﴾ هدايتكم ﴿ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بالتوفيق لها، والحمل عليها، ولكن شاء أن يترك للعباد، أمر الاختيار في الإيمان والكفر، لِيَتِمَّ التَّكْلِيفُ ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ .

﴿ قُلْ هَلَمْ شُهِدَاءَكُمْ ﴾ أي أحضروهم للشهادة على صحة ما تزعمون و«هلم» اسم فعل أمر، بمعنى أحضر، وهات، ويستوي فيه الواحد، والجمع، والمذكر، والمؤنث، بمعنى الدعاء إلى الشيء، كما قال تعالى: ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾ وهم كباروهم الذين أسسوا ضلالهم، والمقصود من إحضارهم فضيحتهم، وإظهار أن لا متمسك لهم، وقوله ﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى ما حرّمه من الأنعام وهو طلب تعجيز ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا ﴾ بعدما حضروا بأن الله حرّم هذا ﴿ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أي فلا تصدقهم فإنه كذبٌ بحثٌ، ويبيّن لهم فسادهم ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِمَا يَنْتَهِتْنَا ﴾ أي لا تتبع أهواء الضالين المكذبين لآيات الله، فإنما يتبعون الهوى، وهو شقاء وضلال ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ كعبدة الأوثان ﴿ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي يجعلون له عديلاً أي شريكاً، والمعنى لا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله، وبين الكفر بالآخرة، وبين الإشراف به سبحانه فإنهم جامعون لها متصفون بها.

قالوا: لو لم يرض الله ما نحن عليه لحال بيننا وبينه، وإنما قالوا ذلك مستهزئين، ودافعين للاحتجاج عليهم، فيقال لهم: لم تقولون عن مخالفكم إنهم ضالون، فهم على المشيئة أيضاً، فلا حجة لهم لأنهم تعلقوا بالمشيئة وتركوا الأمر. أهـ.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا  
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ  
وَأَيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا  
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٥١) .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ أمرٌ له عليه السلام بعدما ظهر له بطلان ما  
ادَّعوا على الأسلوب الحكيم، أي تعالوا أقرأ ما حرَّمه ربكم عليكم على  
وجه اليقين، لا بالظن والتخمين ﴿ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أقرأ  
الذي حرَّمه ربكم عليكم، وفي ذكر الربِّ وإضافته إليهم ﴿ رَبِّيَ ﴾  
لاستمالتهم إلى امثال الأمر، لأنه يرببهم لما فيه خيرهم وصلاحهم ﴿ أَلَّا  
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ بدأ سبحانه بأمر الشرك، لأنه أعظم المحرمات،  
وأكبر الكبائر ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ ﴾ أي أحسنوا بهما ﴿ إِحْسَانًا ﴾ كاملاً، لا إساءة  
معه، وإنما ذكر ضمن المحرمات، لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده، فكأنه  
قال: ولا تسيئوا إلى الوالدين، بل أحسنوا إليهما إحساناً، والسرُّ في الأمر  
بالإحسان، المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما، غير كافٍ في  
قضاء حقوقهما، ولهذا لم يقل: ولا تسيئوا إليهما، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ  
مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ إملق إملاقاً: افتقر، أي لا تقتلوهم خشية الفقر، لئلا تروهم  
جباعاً ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ أي نحن نرزق الفريقين، رزقكم ورزقهم  
علينا، فلا تخافوا الفقر، وتقدموا على ما نهيتهم عنه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ﴾  
أي المنكرات الكبائر، كالزنى وشرب الخمر ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾  
أي ما يفعل علانية في الحوانيت، كما هو دأب أراذلهم، وما يفعل سراً  
باتخاذ الأخدان، كما هو عادة رؤسائهم وكبرائهم، وتعليق النهي بقربانها،  
للمبالغة في الزجر، قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً  
في السرِّ، ويستقبحونه في العلانية، فحرَّمه الله في السرِّ والعلانية ﴿ وَلَا  
تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أي حرَّم قتلها، بأن عصمها بالإسلام أو  
بالعهد، فيخرج الحربي ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ كالقصاص، وقتل المرتد، ورجم

المحصن<sup>(١)</sup> ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذُكر من التكاليف الخمسة ﴿وَصَنَّكُمْ بِهِ﴾ أي أمركم به أمراً مؤكداً، ولَمَّا كانت الأمور المنهي عنها، مما تقتضي بديهة العقل بقبحها، ختمت الآية الكريمة بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تستعملون عقولكم التي تحبسها عن مباشرة القبائح المحرمة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا  
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا  
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّانِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ  
تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ أي لا تتعرضوا بوجه من الوجوه لمال اليتيم  
﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بالفعل التي هي أحسن الأفعال بماله، كحفظه  
وتثميته، ونحو ذلك، والخطابُ للأولياء، والأوصياء، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ  
يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ فإنه غاية لما يُفهم من الاستثناء، لا للنهي، كأنه قيل: احفظوه  
حتى يبلغ، فإذا بلغ فسلموه إليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن آنَسْتُمْ مِنْهُمْ  
رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> والأشدُّ جمع لا واحد له، والمراد به بلوغ  
الحلم ﴿وَأَوْفُوا﴾ أي أتموا ﴿الْكَيْلَ﴾ أي المكيال ﴿وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي  
بالعدل، والتسوية، من غير زيادة ونقصان ﴿لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا  
ما يسعها ولا يعسر عليها، وهو اعتراض جيء به عقيب الأمر بالعدل،  
للإيدان بأن مراعاة العدل على وجه الدقة، لا يتحقق في كل مكيال  
وموزون، إلا إذا كان بميزانٍ دقيق كميزان الذهب، وفي التزام ذلك في

(١) لما رواه الشيخان عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا يحلُّ دم امرئ مسلم، يشهد أن  
لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب - أي المتزوج - الزاني، والنفس  
بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

(٢) سورة النساء، آية: ٦.

بيوع الحبوب والفواكه، حرجٌ عظيم، كأنه قيل عليكم بما في وسعكم، بحيث يعتقد أنه لم يظلم بزيادة ولا نقص يعتد به، وما وراء ذلك معفو عنكم، ويجوز أن يكون المعنى: جميع ما كلفناكم به ممكنٌ غير شاق، ونحن لا نكلف ما لا يُطاق ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً في حكومة أو شهادة الواجب ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه وقولوا الحق ﴿وَلَوْ كَانُ﴾ المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَى﴾ أي ذا قرابة منكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾<sup>(١)</sup> فالعدل واجبٌ في الأقوال، كما أنه واجب في الأفعال، لأنه هو الذي تصلح به شؤون الناس، فهو ركنُ العمران، وقطبُ رَحَى النظام ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي ما عهد إليكم من الأمور، أو أيَّ عهد كان، كنذرٍ ونحوه ﴿ذَلِكَ وَمَنْ صَلَّى بِكُمْ بِهِ﴾ أي أمركم به أمراً مؤكداً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتذكرون وتتعتون، وتعملون بمقتضاه، وهذه الأحكام العشرة لا تختلف باختلاف الأمم، والأعصار، وهنَّ محرمات على بني آدم جميعاً، ولما كانت هذه التكاليف الخمسة في هذه الآية، تحتاج إلى تبصر وتذكر، لذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّانُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾<sup>(١٥٦)</sup>.

﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ إشارة إلى ما ذكر في هذه السورة، فإنها بأسرها في إثبات التوحيد، والنبوة، وبيان الشريعة الغراء، وقال ابن عباس ﴿هذا﴾ الإشارة إلى شريعة الإسلام، ويلائمه النهي الآتي ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة، أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحدٌ، ومقتضى الهوى متعدد، لاختلاف الطبائع والعادات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ والأصل «تتفرق» أي فتفرقكم عن سبيل الهدى ودين

(١) سورة النساء، آية: ١٣٥.

الإسلام، الذي لا عوج فيه ولا انحراف. روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطأً بيده، ثم قال: هذا سبيلُ الله تعالى مستقيماً، ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطِّ وعن شماله، ثم قال: هذه السُّبُل، ليس منها سبيلٌ إلاّ عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية (١) ﴿ذَلِكَم﴾ إشارة إلى ما مر من اتباع سبيله، وترك اتباع سائر السبل ﴿وَصَنَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عن اتباع سبل الكفر والضلالة، ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف، وأمر سبحانه باتباعه، ونهى عن اتباع غيره، ختم ذلك بالتقوى، التي هي انقضاء النار، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية، وحصل على السعادة السرمدية<sup>(٢)</sup>، وكرر سبحانه الوصية، ويالها من وصية، ما أعظم شأنها!! ولهذا ورد عن ابن مسعود أنه قال: من سرّه أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ بخاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا... تَتَّقُونَ﴾.

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ أي ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ شافياً كافياً، والمراد بالكتاب التوراة ﴿ تَمَامًا

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤٣٥/١ ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.  
(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٠٠/٥ حيث كانت المحرمات الأول واضحة لا يقع فيها عاقلٌ نظرٌ بعقله، جاءت العبارة ﴿لعلكم تعقلون﴾ والمحرمات الأخر شهواتٌ، وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، جاءت العبارة ﴿لعلكم تذكرون﴾ ثم لما كان ركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوى جاءت العبارة ﴿لعلكم تتقون﴾!!.

عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ ﴿١٥٦﴾ أي أعطيناه التوراة تماماً للكرامة والنعمة، على من كان محسناً وصالحاً، وهو موسى عليه السلام الذي أحسن العبادة والطاعة لله مئةً عليه منّا، لما سلف منه من حسن العبادة والمجاهدة في سبيل الله ﴿وَنَقْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي بياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين ﴿وَهُدًى﴾ أي دلالة الحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالمكلفين من أتباعه من بني إسرائيل ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ﴾ أي بالبعث والثواب والعقاب ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون، وعن ابن عباس المعنى: كي يؤمنوا بالبعث، ويصدقوا بالثواب والعقاب.

﴿وَهَذَا﴾ أي القرآن الكريم، الذي تليت عليكم أوامره ونواهيه ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشأن، لا يُقادر قدره ﴿أُنزِلْنَاهُ﴾ بواسطة الروح الأمين، مشتملاً على فنون الفوائد الدينية والدينية ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي كثير الخيرات والمنافع ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أي فاستمسكوا به واجعلوه إماماً لكم، فإنَّ عظم شأن الكتاب في نفسه، وكونه منزلاً من جنابه عزَّ وجل، موجبٌ لاتباعه ﴿وَاتَّقُوا﴾ مخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكون رحمته تعالى مرجوة لكم.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ ﴿١٥٧﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِعَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ وهما اليهود والنصارى، وتخصيص الإنزال بكتابهما، لأنهما اللذان اشتها حينئذ من الكتب السماوية ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ أي وقد كنا عن تلاوة كتبهم ﴿لَغَفِيلِينَ﴾ لا ندرى ما هي؟ وهذا خطاب لأهل مكة، لقطع عذرهم بإنزال القرآن الكريم بلغتهم.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ﴾ كما أنزل عليهم ﴿لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾

إلى الحق الذي هو المقصد الأقصى ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أي لا تعتذروا يا أهل مكة بذلك فقد جاءكم ﴿بَيِّنَةٌ﴾ أي حجة واضحة تعرفونها لظهورها وكونها بلسانكم، وهذا هو الجواب القاطع لكل من اعتذر، فإن القرآن بيّنة عظيمة، مبيّنة للحق، في العقائد، والفضائل، والشرائع، كائنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الذي يريكم ويتعهد مصالحكم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي وهداية ورحمة من رب الأرباب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ؟﴾ أي لا أحد أظلم وأفجر ﴿مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ممن كذب بالقرآن، ولم يؤمن بآياته البينات، وعبر عما جاءهم ﴿بآيات الله﴾، تهويلاً للأمر، وتنبهياً على أن تكذيب أي آية من آيات الله، كافية في الكفر، فما ظنك بتكذيب القرآن المنطوي على الكل؟ ﴿وَصَدَفَ﴾ أي صرف الناس ﴿عَنْهَا﴾ عن الآيات، فجمع بين الضلال والإضلال ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾ وعيد لهم ببيان جزاء إضلالهم وضلالهم أيضاً ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي العذاب القبيح السيئ، الشديد النكاية ﴿بِمَا كَانُوا﴾ أي بسبب ما كانوا ﴿يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون عن آيات الله، ويمنعون الناس عن الهداية والإيمان، وذكره بصيغة المضارع ﴿يَصْدِفُونَ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، أي هم في كفر دائم، وإعراض مستمر.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾ .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أو يأتي أمر ربك بالعذاب<sup>(١)</sup> ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾

(١) قال الطبري ٢٤٥/١٢ ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي يأتيهم ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه .

رَبِّكَ ﴿ أَي أَسْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى، كَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَالسِّيَاقُ النَّاطِقُ بِعَدَمِ نَفْعِ الْإِيمَانِ، عِنْدَ إِتْيَانِ مَا يَنْتَظِرُونَهُ، يَسْتَدْعِي أَنْ يُحْمَلَ ذَلِكَ عَلَى أُمُورٍ هَائِلَةٍ، وَهُوَ الْأَنْسَبُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ لِمَا رَوَاهُ الشَّيْخَانُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ، آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَلِكَ حِينٌ: ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾»<sup>(١)</sup> وَإِنَّمَا لَمْ يَقْبَلِ الْإِيمَانُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِإِيمَانٍ اخْتِيَارِيٍّ، وَإِنَّمَا هُوَ إِيمَانٌ لِخَوْفِ الْهَلَاكِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾<sup>(٢)</sup> فَيَكُونُ الْإِيمَانُ حِينَئِذٍ كَالْإِيمَانِ عِنْدَ الْغُرْغُرَةِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ حِينَئِذٍ نَفْسًا، لَمْ تَقْدَمْ إِيمَانُهَا، أَوْ قَدِمَتْهُ وَلَمْ تَكْسِبْ فِيهِ خَيْرًا، وَمِنْ ضَرُورَةِ اشْتِرَاطِ النِّفْعِ بِتَحْقِيقِ الْأُمُورِ مَعًا، أَنَّ الْإِيمَانَ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي فِي ذَلِكَ الْحِينِ، وَفِي ذَلِكَ خِلَافٌ بَيْنَ الْمَعْتَزَلَةِ وَأَهْلِ السَّنَةِ، وَلِلْمَعْتَزَلَةِ جِدَالٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، يَسْتَدْلُونَ بِهَا أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَنْفَعُ بَدُونَ عَمَلِ الْخَيْرِ، وَيَمْنَعُ ذَلِكَ الْآخَرُونَ، وَالتَّحْقِيقُ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ، يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ فِي الْجَمَلَةِ، دُونَ الشُّمُولِ، فَيَجُوزُ عَقْلًا أَنْ يَتْرَكَ الْمُؤْمِنُ بَعْضَ الْوَاجِبَاتِ، أَوْ يَرْتَكِبُ بَعْضَ الْمَحْرَمَاتِ، وَلَكِنَّهُ يَتُوبُ وَيَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّكَنَ مِنَ الْعَمَلِ، وَمَا أَظُنُّ أَنَّهُ يَوْجَدُ عَاقِلٌ يَخْتَلِفُ فِي نَجَاةِ مِثْلِ هَذَا بِمَجْرَدِ الْإِيمَانِ ﴿ قُلْ ﴾ لَهُمْ بَعْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ الْحَالِ عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ ﴿ أَنْتَظِرُوا ﴾ مَا تَنْتَظِرُونَهُ مِنْ إِتْيَانِ أَحَدِ هَذِهِ الْأُمُورِ ﴿ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ لِذَلِكَ، وَحِينَئِذٍ نَشَاهِدُ مَا يَحُلُّ بِكُمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَفِيهِ تَأْيِيدٌ لِكَوْنِ مَا يَنْتَظِرُونَهُ إِتْيَانِ أَمْرِهِ تَعَالَى بِالْعَذَابِ، وَوَعْدُ اللَّهِ لِلرَّسُولِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، بِمَعَايِنْتِهِمْ لِمَا يَحِقُّ بِهِمْ.

(١) الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ٢٩٧/٨ وَمُسْلِمٌ ١٩٤/٢ وَأَبُو دَاوُدَ ١٦٣/٤ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي الصَّحِيحِ «فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ، آمَنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينٌ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ».

(٢) سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةٌ: ٨٤.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿١٥٩﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ روي عن ابن عباس وقتادة أن الآية نزلت في اليهود والنصارى، أي بددوا دينهم، وفرقوه أبعاضاً، فتمسك بكل بعض منهم ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ أي فرقا وأحزاباً، كل فرقة تعادي الأخرى. أخرج أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة، وافتترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة»<sup>(١)</sup> قال الخطابي: في هذا الحديث، دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من الدين، إذ جعلهم من أمته ﷺ، ومجموع الآثار الواردة في تفسير الآية تدل على شمولها للتفرق في أصول الدين، بحيث يعادي المسلمون بعضهم بعضاً، كما قالت أم المؤمنين عائشة (رضي) في الثورة يوم قتل عثمان رضي الله عنه: «إلا إن الله ورسوله، بريتان من الذين فارقوا دينهم، فكانوا شيعاً» ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ أي فرقا وأحزاباً كل فرقة مختلفة عن الأخرى، تتخذ لها إماماً ﴿ لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ أنت بريء منهم، وهم منك براءء ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ يتولى جزاءهم يوم القيامة كيف يشاء، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة وقيل: المفرقون هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة<sup>(٢)</sup> ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ ﴾ يوم القيامة

(١) الحديث أخرجه أبو داود في السنة رقم ٤٥٩٧ والترمذي في الإيمان رقم ٢٦٤١ ولفظ الترمذي: «إن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي».

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢٠٤: والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه =

﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ في الدنيا بعد تعذيبهم بأيديهم، بما مضت سنته عز وجل في الاجتماع البشري، من ضعف المتفرقين، وتسلط الأقوياء عليهم، فيذيق بعضهم بأس بعض، بما تثيره عداوة التفرق بينهم من الحروب والشور، ثم ينبئهم عند الحساب، عاقبة ما ارتكبوه من تفرق وتمزق، أنهم كانوا جاهلين بما ارتكبوه.

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿١١٦﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ آبَائِهِمْ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٧﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٨﴾ لَا شَرِيكَ لِي وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَمَنْ دَعَا مِن دُونِ اللَّهِ أَجْتَبِئُوا بِكُفْرَانٍ لَّعَلَّ يَكْفُرُونَ ﴿١١٩﴾

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ المراد من الحسنة ههنا: الإيمان، والأعمال الصالحة، أي من جاء بالأعمال الحسنة من المؤمنين ﴿ فَلَهُ عَشْرُ ﴾ حسنات ﴿ أَمْثَالِهَا ﴾ فضلاً من الله تعالى، وهذا أقل ما وعد تعالى من الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعين، وبسبعمائة، وبغير حساب ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أي بالأعمال السيئة، كالكفر، والعصيان ﴿ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ بحكم الوعد واحدة بواحدة ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص الثواب، أو زيادة العقاب، وأما إيجاب كفر ساعة بعقاب الأبد، فلائ الكافر على عزم وتصميم أنه لو عاش أبداً، لبقى على ذلك الاعتقاد أبداً، فيعامل بنيته.

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي ﴾ أي قل يا محمد لأولئك الضالين إن ربي أرشدني بالوحي، وبما نصب في الآفاق والأنفس، من الآيات التكوينية ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي طريق قويم، موصل إلى الحق، وهو دين الإسلام ﴿ دِينًا ﴾

= واحد لا اختلاف فيه، ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ أي فرقاً كأهل الملل والتحل والأهواء والضلالات، فإن الله قد برأ رسوله منهم.

أي هداني ديناً ﴿ قِيمًا ﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه، مصدرٌ نُعت به مبالغة، وهو أبلغ من القائم قال الزجاج: وهو مصدر كالصَّغر، والكِبَر، وكان الأصل أن يأتي بالواو «قِيَمًا» كما قالوا: عَوْضٌ، ولكنه شدَّ عن القياس، يعني: ديناً مستقيماً لا اعوجاج فيه ﴿ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي دين الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، مائلاً عن الأديان الباطلة ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي ما كان منهم في أمر من الأمور أصلاً، لأن الحنيفية تنافي الشرك، ففيه تكذيب لهم، في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم، لأنه عليه السلام كان على دين التوحيد، وفيه ردُّ على الذين يدعون أنهم على ملته، من أهل مكة القائلين: الملائكة بنات الله، واليهود القائلين: عزير ابن الله، والنصارى القائلين: عيسى ابن الله.

﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ ﴾ أي عبادتي كلها ﴿ وَشُكِّرْتُ ﴾ أي ذبحي وقرباني ﴿ وَحَيَّيْتُ وَمَمَاتُي ﴾ أي حياتي وموتي، وما أقدمه في هذه الحياة من الإيمان والعمل الصالح ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ خاصة لوجهه عز وجل.

﴿ لَا شَرِيكَ لَّهِ ﴾ أي لا أشرك فيها غيره ﴿ وَيَذَلِّكَ ﴾ أي بإخلاص العبادة لله وحده، والإخلاص في العمل ﴿ أَمَرْتُ ﴾ لا بشيء غيره ﴿ وَأَنَا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته أي وأنا أول من خضع وأذعن، وانقاد إلى امتثال ما أمر الله تعالى به.

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزْرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٦٩).

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِي رَبًّا ﴾؟ الاستفهام للإنكار والتعجب، أي قل لهم يا محمد: أغير الله تعالى أطلب رباً، فأشركه في العبادة؟ ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي والحال أنه خالق مالك كل شيء، وكلُّ ما سواه مربوب له

تعالى، فكيف يُتصور أن يكون شريكاً له في الربوبية؟ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ يروى أنهم كانوا يقولون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، فردّ عليهم بأن ما كسبته كل نفس من الخطايا محمولٌ عليها، لا على غيرها، وعلى هذا يكون قوله سبحانه ﴿وَلَا تُزْرُ وَارِثَةٌ﴾ أي نفسٌ أئمة ﴿وَزْرَ أُخْرَى﴾ تأكيداً لما قبله، أي لا تحمل حاملةٌ حملاً أخرى من الذنوب والآثام، وفي الحديث «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ - أَي مِنْ بَعْدِ مَمَاتٍ مِنْ سَنَتِهَا - مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا، وَوَزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»<sup>(١)</sup> ولا تعارض بين الآية والحديث، فكلٌّ من هذا وذاك، من عمل الهادين والمضلين، لأنهم الذين دعواهم إلى الهدى أو الضلال ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيهٌ له إلى الكل، لتأكيد الوعد، وتشديد الوعيد، أي رجوعكم أيها الناس إلى مالك أمركم يوم القيامة، وهو الله رب العالمين ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي من أمر الدين، ببيان الرشد من الغي، وتمييز الحق من الباطل.

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ ﴾ أي الله الذي جعلكم ﴿ خَلْقَ الْأَرْضِ ﴾ أي يخلف بعضكم بعضاً، كلما مضى قرنٌ جاء قرنٌ، تتصرفون فيها كما يتصرف المالك بملكه ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ في الفضل، والغنى، والرزق، وغير

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزكاة رقم ١٠١٧ وهو طرفٌ من حديث طويل في القوم العراة من مضر الذين قدموا على رسول الله ﷺ وقد اشتد بهم الفقر، وأنظر تمام الحديث في جامع الأصول ٤٥٧/٦.

ذلك ﴿دَرَجَاتٍ﴾ كثيرة متفاوتة ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من المال والجاه، أي ليعاملكم معاملة من يتليكم، لينظر ماذا تعملون؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ تجريد للخطاب لرسول الله ﷺ، مع إضافة اسم الرب إليه، لإبراز مزيد اللطف به ﷺ ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أي عقابه الأخروي سريع الإتيان، لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله، لأن كل آتٍ قريب ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن رعاها حقاً رعايتها، وأطاع الله في هذه الحياة، ويجوز أن يُراد بالعقاب عقاب الدنيا، كالذي يعقب المجرم من البعد عن الفطرة، وقساوة القلب، وغشاوة الأبصار، وصمم الأسماع ونحو ذلك، وفي الوصفين الواردين على بناء المبالغة، مع التأكيد باللام ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ما لا يخفى من التنبيه على أنه سبحانه غفور رحيم بالذات، لا تتوقف مغفرته ورحمته على شيء، مبالغ في ذلك.

وما أَلطف افتتاح هذه السورة بالحمد، وختمها بالمغفرة والرحمة، نسأل الله تعالى أن يجعل لنا الحظ الأوفر منهما، إنه ولي الإنعام، وله الحمد في كل ابتداء وختام. وهذا آخر الكلام في تفسير سورة الإنعام، والحمد لله الملك العلام، وصلى الله على رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام!.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنعام»

\*\*\*